تراث الإنسانية

اندروماك

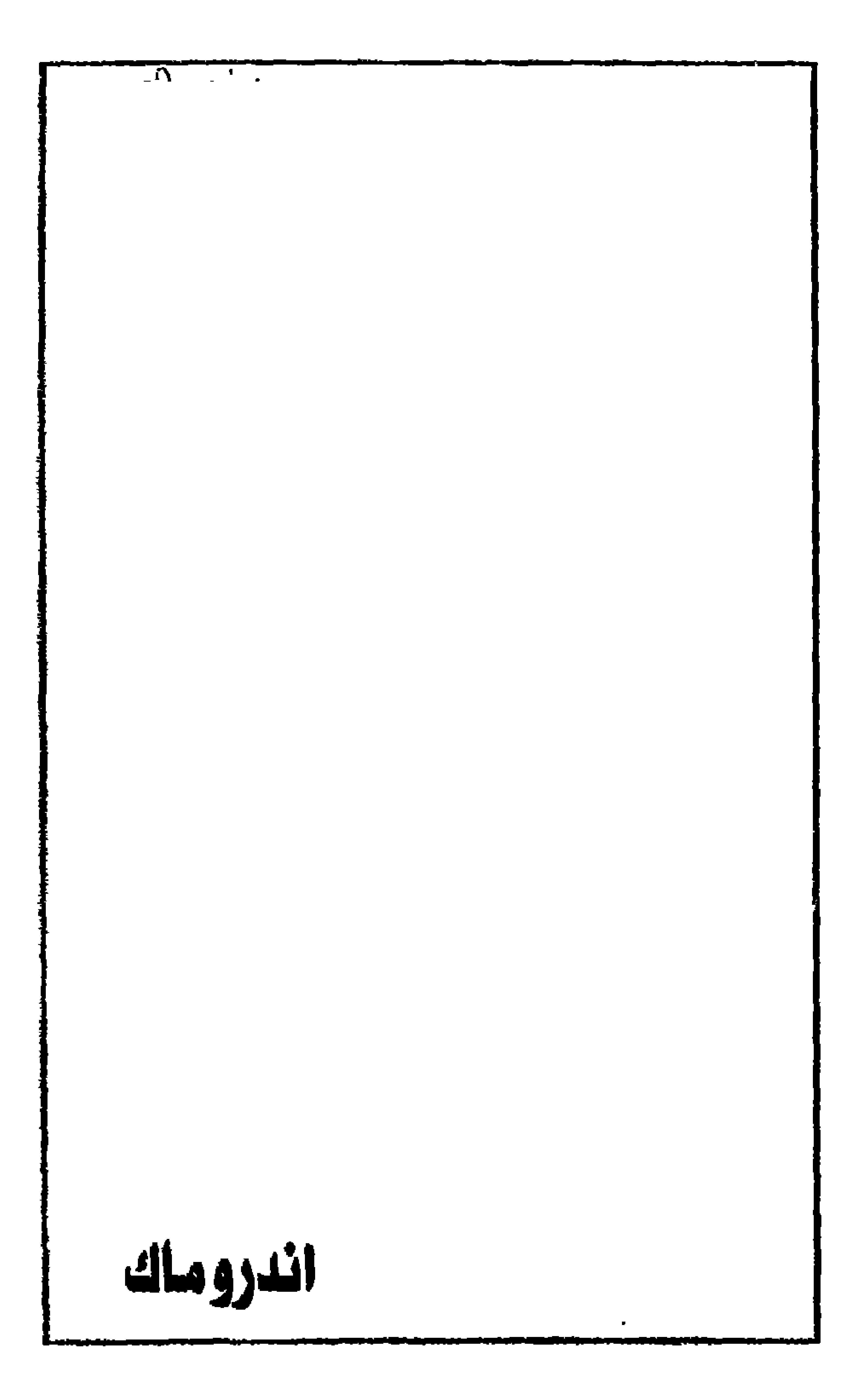
لراسين



الهيئة
المصرية
العامة
للكتاب

...د الرحمن صدقى

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٤

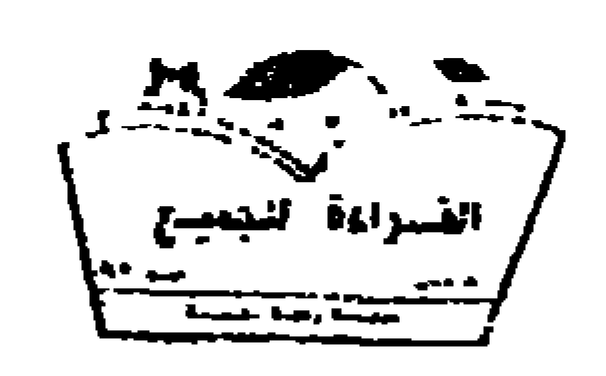


اندروماك

اندروماك

لراسين

عبدالرحمن صدقى



مهرجان القراءة للجميع ٩٤

مكتبة الأسرة

(تراث الإنسانية)

الجهات المشتركة :

جمعية الرعاية المتكاملة

وزارة الثقافة (هيئة الكتاب)

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الحكم المحلى

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

الإنجاز الطباعى والفنى

محمود الهندى

مراد نسيم

احمد صليحة

المشرف العام

د . سمير سرحان

اندروماك
لراسين
عبدالرحمن صدقي

اذا كان من أهل الكتابة من تنعكس حياته في عمله الأدبي كالصورة فى المرآة ، تارة واضحة وأحيانا داكنة أو شاحبة كما هو معهود فى الآثار الأدبية للكاتب الفرنسى « شاتوبريان » والشاعر الانجليزى بيرون ، والشاعر الناثر الألمانى هنرى هينى ، فان من أهل الكتابة شعرا ونثرا من تتصفح كتاباتهم فى مختلف أطوار حياتهم ، فلا تطالعك منها صورة واحدة يمكن أن يقال انها صورتهم أو ما يشبه ذلك . فهل يدخل فى عداد هؤلاء الأخيرين شاعر المسرح الكلاسيكى المشهور « جان راسين » ؟

هذا ما يقوله النقاد الرسميون ، باعتبار أن الموضوعية هى القاعدة فى الكتابة الكلاسيكية ، وبمقتضى ذلك لا تظهر صورة الكاتب الكلاسيكى فى كتاباته نثرا كانت أو شعرا ،

ولكن الملحوظ على الرغم من ذلك فى بعض آثار الكتاب الكلاسيكيين ظهور أكثر من أثر لحياتهم فى كتاباتهم المسرحية ، منهم من كان معاصرا لراسين ، وهو موليير العظيم سيد المسرح الهزلى . الذى كان من تجاربه الشخصية أن تزوج فى علو سنه فتاة تجعلها سنها بمثابة بنته ، كما لازمته الأمراض فكان اتصاله بالأطباء المعالجين باعثا على سوء ظنه بهم ، ومن أجل هذا وذاك ، جاءت اكثر من كوميدية من كوميدياته متأثرة بهاتين التجربتين من تجاربه الشخصية ، بحيث نلمح صورته من وراء كتابته فلا غرو — والحالة هذه — اذا أخذنا على أنفسنا فى مستهل كلامنا على مسرح راسين ، أن نعرض بشىء من التفصيل الى سيرته ، حتى يمكن تعيين موضعه بين هذين الفريقين من الكلاسيكيين ، وتحديد نصيب الشخصية — ان كان للشخصية نصيب — فى تراجيدياته الكلاسيكية الموضوعية . وسيكون سبيلنا فى الترجمة له التنبيه الى مقومات تكوينه الأدبى فى صباه ، وما دفعته اليه حرارة الطبع والمزاج من النزوع الى انتهاز فرص الحياة وانتهاب أفراحها وملذاتها على الرغم من تربيته الأولى الدينية ، ثم طلبه للمجد الدنيوى عن طريق شعر المناسبات يرفعه الى صاحب الأمر ، وأخيرا اتصاله بالملك لويس الرابع عشر وملابسته للحياة فى بلاط « الملك الشمس » حتى قبيل وفاته ، لكى يخلص القارىء الى أثر هذه التجارب الشخصية المتعددة فى ما يطالعنا به راسين فى تصويره للبشر ، فهو لا يصورهم

كما ينبغى لهم أن يكونوا فى نظر المثل العليـا على نحو ما فعل سلفه « كورنى » أبو التراجيديا الفرنسية ، بل كما هم فى الواقع · ذلك المزيج من القوة والضعف الذى لا يكفل لهم الثبات فى وجه الأهواء والشهوات على الرغم من صراعهم الدرامى ·

نشأة الشاعر

مولده

ولد « جان راسين » من أسرة بورجوازية ولكنها عريقة فى الاقليم المسمى « جزيرة فرنسا L'île de France » لكونه محاطا بأنهـار أربعة وفى وسطه باريس ، وذلك ببلدة « فورتى ميلون Forté Milon » وهى بلدة صغيرة تقـوم فى موقع نزه على ضـــفة نهر أورك Ourecq وكان ميلاده فى الثانى والعشرين من ديسمبر عام ١٦٣٩ فى عهد لويس الثالث عشر ، أو على الأصح فى عهد وزيره الكاردينال ريشليو Rechelieu المشهور ، وهو عهد كان لفرنسا فيه تطلع للسياد على أوروبا ·

وفى هذا العهد كانت الدولة معنية بالنهوض باللغة والحرص على سلامتها والارتقاء بأسلوبهـا وديباجتهـا ، عن طريق الأكاديمية الفرنسية التى أنشأها الوزير الخطير الذى لم تشغله شئون السياسة الداخلية والخارجية عن العناية بالفنون والآداب ، وخاصة الأدب المسرجى الى حد

مشـــاركة لجنة الخمســة الذين استخدمهم للتأليف ـ ومنهم أبو المسرح الفرنسى كورني نفسه فى مبدأ أمره ـ اذ كان يتدخـل فى اختيـــار المواضـــيع للمسرحيـات المطلوب منهم تأليفهـــا ، ومنهـــا كوميـدية التويلـرى La comédie des Tuileries التى مثلت فى حضرة الملك لويس الثالث عشر .

وقد جاء مولد جان راسين فى الوقت الذى بلغ فيه أبو المسرح الفرنسى كورنى غاية مجده وتألق نجمه ، واذا أردنا التحديد قلنا ان مولد راسين جاء بعد ظهور أول آيات كورنى وأعظمها « السيد » عام ١٦٣٦ ، وبين الآيتين التاليتين « هوراس » و « سينا » عام ١٦٤٠ . ولقد شاء القدر أن يحرم الوليد من حنان أمه وهو لم يبلغ الثانية من عمره فعاجلتها المنية فى الثالث والعشرين من يناير عام ١٦٤١ ، ولم يلبث القدر أن عاود ضربته بعد سنتين أخريين ، فأعقب حرمانه من أمه حرمانه من أبيه فى السادس من فبراير عام ١٦٤٣ ، فصـــار الطفل راسين وهو فى الرابعـة يتيما من أبويه جميعـا . فكفلته مارى دى مولان Marie des Moulin جدته لأبيه .

وكانت فى أوائل هذا العام نفسه وفاة لويس الثالث عشر ، وانتقال الملك الى ولده الطفل « لويس الرابع عشر » وهو فى الخامسـة من عمره ، فقامت بالوصـاية عليـه الملكة الوالدة « آن النمسـاوية « Anne d'Autriche »

وكان الكاردينال ريشليو قد سبقت اليه المنية. وخلفه على الوزارة كاردينال من أصل ايطالى وهو مازاران الذى نهج منهج سلفه فصرف همه الى جعل الأمر كله للسلطة الملكية في الداخل ، والى دفع العدوان الاسبانى على فرنسا من الخارج ٠

البيئة الدينية الأدبية التي نشأ فيها راسين بور رويال :

وكان آل راسين بطبعهم متدينين أعمق التدين ، وقد انتمى أكثر من واحد من أفراد الأسرة الى دير بور رويال Port-Royal الواقع فى واد جنوبى شرق باريس ، اذ كان لجدة راسين فى هـذا الدير ابنة راهبـة هى عمته « أنييس Agnès » ، كما كان للجدة كذلك أختان راهبتان ، ولم تلبث هى نفسها أن لحقت بهن فى أوائل عام ١٦٤٩ حين ترملت ٠ فلا غرابة ان رغبت الجدة أن ينشأ حفيدها راسين اليتيم على مبادىء هذه الجماعة التى تذهب مذهب الأسقف « جنسن Jansen » القائل بأن الهداية الى الدين انما هى بالوجدان لا العقل ، وأن خلاص النفوس الانسانية ليس بارادة الانسان وأفعاله وانما الخلاص رهن الرحمة الالهية ، وعلى الانسان أن يحيا حياة التقشف التماسا لهذه الرحمة التى لا ينالها العبد باعتبارها حقا مستحقا له ، بل منحة من الله تعالى ونعمة ٠ وكان هذا المذهب آخذا فى الشيوع فى فرنسا فى القرن السابع عشر متغلغلا فى

البلاط الفرنسى وفى المجتمع وبين معظم أهل الأدب حتى لا يكاد يستثنى منهم غير موليير و « لافونتين » . وكانت هذه الجماعة تأخذ على رجال الدين الجزويت تساهلهم فى منح الغفران عن الخطايا للنادمين دون أن يكون ندمهم قد جاوز القول الى العمل الجدى الصارم ، فنشط الجزويت الى محاربتهم حتى أعلن البابا استنكاره لأكثر من مبدأ من مبادئهم . ولكن هذه الجماعة لم يكن قد اشتد عليها النكير فى حداثة راسين ، وكانت معاهدها مشهورة بما يتلقاه تلاميذها من تربية صالحة وتعليم ممتاز . ولقد حققت الجدة رغبتها فأرسلت الى المعاهد المنتسبة الى هذه الجماعة حفيدها ، فقضى فى مدرسة بوفييه L'école de Beauvais — الواقعة على بعد أميال شمالى باريس — نحوا من أربع سنوات من ١٦٥١ الى ١٦٥٥ ، أى فى ابان قيام الاضطرابات التى أطلق عليها اسم « المقلاع la Fronde » تهوينا من شأن تلك الحركة التى اشترك فيها الشعب مع الأشراف ضد سياسة مازاران الداخلية ، فكانت نهايتها القضاء على مطامع الأشراف فى استرداد امتيازاتهم الاقطاعية ، وأمكن بعدها تحويلهم الى حاشية خاضعة للملك قانعة بالاشتراك فى حفلات الرقص وشهود العروض التمثيلية فى قصر فرساى .

وكان لفيف من السادة المثقفين من أهل الورع المتدينين على مذهب « جانسن » قد آثروا الانقطاع والتبتل فى الوادى الشجر المعشوشب الذى يقع فيه دير

« بور رويال » جنوبي شرقي باريس ، وهم المعروفون
بالسادة Les messieus أو المتبتلون Les solitaires
ثم عمدوا الى تل قريب أنشئوا عنده منذ عام ١٨٤٨ معاهد
للتربية والتعليم أسموها المعاهد الصغيرة لبور رويال
Les petiles écoles de Port-Royal وكان يؤمها
أبناء الخاصة من الأشراف وأغنياء الطبقة الوسطى
الحريصين على تنشئة أبنائهم تنشئة تجمع بين التربية
الصالحة والثقافة الرفيعة . ونظرا لانتماء آل راسين الى
مذهب بور رويال ، فقد حظى الفتى راسين عام ١٦٥٥
وهو في السادسة عشرة من عمره بدخول أحد معاهد
الجماعة وهو معهد L'école des Granges وكان يقوم
بالتعليم في هذا المعهد من الجماعة « هامون Hamon »
و « أنطوان ليميتر Antoine Lemaître » و « بيير نيكول
Pierre Nicole » و « كلود لانسلوت Claude Lancelot »
وهم جميعا من جهابذة العلماء في الأخلاق والدين واللغات
والأدب والطب والرياضيات .

وكان « نيكول » مدرس الدين والأخلاق هو الذى
لقن راسين لا محالة على مقتضى مذهب جانسن أن الانسان
عاجز وحده عن بلوغ الخير اعتمادا على ارادته البشرية
وحدها ، لأن الشهوات أعنف قوة من أن يمتنع عليها
انسانا أيا كان ، فهي الغالبة حتما الا اذا أعان الله عليها
بمنه ورحمته . ولعله من المفيد هنا أن نشير الى أن ما سوف

نراه في تراجيديات راسين في التصـــوير البليغ لقنوى الشهوات التي يتعرض لها أبطاله على اختلافهم ، ثم تصويره البليغ لضعف هؤلاء الأبطال جميعا عن مغالبتها على الرغم من قوة ارادتهم ، قد يكون مرده عند راسين تأثره بهذه العقيدة من عقائد أساتذته من جماعة بور رويال .

كذلك كان للأستاذ الآخر ، وهو عـالم اللغـات « لانسلوت » أكبر الأثر في تكوينه الأدبي . فقد كان هذا الأستاذ حجة في اللغـات القديمة خاصة ، وعلى الأخص اللغة اليونانية التي كان تعليمها قد اختفى واضمحل من سائر المعاهد الأخرى . ولقد أحسن الأستاذ لانسلوت تخريج راسين في هذه اللغة حتى استطاع أن يقرأ في علوم الدين الاثني عشر مجلدا التي كتبها باليونانية القديس يوحنـا الأنطاكي بطريق القسـطنطينية الذي بلـغ من اعجاب أهل الدين به أن أطلق عليـه لقب « الفم الذهبي Chrysostome » حتى أصبح اللقب علما عليه . والى جانب هـذه الدراسـة الدينية كان راسين يقضي وحدته الحالمة في مطالعة الشـعر اليوناني والتدقيق في كتابة التعاليق والحواشي عليه ، وخاصة هومر وروائع التراجيديا القديمة للشاعرين يوربيدس وسوفوكليس في نصوصها الأصلية فضلا عن أشعار فرجيل اللاتينية . وكان من فرط تعلقه بهذه الآثار وحبه لها ، أنه كان يقضي الأيام عاكفا على استيعابها الى حد حفظها عن ظهر قلب ، وهو خال بها في الغـابات المحيطة ببور رويال . ولقد كان أسـاتذة

« بور رويال » على الرغم من شدة حرصهم على صرف أنظار تلميذهم كل ما يعرض أخلاقه في هذه السن المبكرة لأدنى الخطر ، ينســاقون في حبهم للآثار القديمــة الى توسيع نطاق اختيارهم للنصوص ، حتى لتشمل أحيــانا بعض كوميــديات لا تخلو من المجــون مثل كوميــديات ترانس Terence اللاتينية • ولم يقف الفتى عند الحد الذى سمح به أستاذه مع ما كان من سعة مداه ، بل تعداه حتى استباح لنفسه التقاط كتاب عثر عليه في مكمنه بين أسفار مكتبة بور رويال وهو قصة قصــيرة باللغة اليونانية عنوانهــا « الوفاء والحيــاء فيما كان من وقائع الحب به تيالجين وشاركلي Les amours de Théalgênc et Chariclée وقد انكب الفتى على هذه القصة الغرامية يلتهمها بلذة يزيد الشعور بالاثم من حدة طبعها • ولقد زاد الراوى ــ وهو ابن راسين ــ في سياقه للخبر تفاصيل فيها من الطرافة ما يجعلها أشبه بالنادرة بل الفكاهة المستهترة • فهو يروى أن الأستاذ « لانسلوت » أمين الخزانة فاجأ راسين وهو مستغرق في قراءة القصة الغرامية في لغتها الاغريقية ، فلم يتمالك أن انتزع الكتاب من يد راسين وقذف به طعمة للنيران • ولكن التلميذ لم يعدم وسيلة للحصول على نسخة أخرى عن طريق ابن عمه انطوان فيتار Antoine Vitart الذى كان يدرس في باريس الفلسفة في كلية هاركور ، ولكن النسخة الثانية لقيت مصير النسخة الأولى ، فاشترى راسين ثالثة • ولما كان غير مطمئن الخاطر لبقائها دون

مصادرة ، فقد استظهر ما فيها عن ظهر قلب ، ثم مضى بها الى الأستاذ قائلا : « دونك هذه أيضا ، ولك أن تحرقها كسابقتها » .

وهنا فى بور رويال ، عند البركة الصافية وبين الخمائل والأدغال ، أخذت تتفتح ما انطوت عليه سليقة الفتى راسين من النفحات الشعرية ، فنظم فى مشاهد بور رويال الجميلة الجليلة سبع قصائد تنم سلاسة نظمها الأنيق على ما سيكون عليه نظمه فى المستقبل القريب . كذلك عكف الفتى عند البركة وبين الأدغال فى بور رويال على معالجة ترجمة طائفة من الأشعار القديمة والمواقف الدرامية . وهكذا فى تلك الوحدة المؤنسة التى تساعد على تنشئة النفوس العظيمة ، جاشت فى قلب الفتى الشاعر لفحات مما كان عاكفا على قراءته وترجمة بعضه من الأهواء الجامحة والانفعالات المشبوبة التى سنرى لمحات منها معكوسة على شخصيات مسرحه .

راسين فى باريس بين الملاهى والمسارح

وأخيرا فى عام ١٦٥٨ غادر راسين بور رويال الى باريس حيث قضى سنة فى دراسة المنطق والفلسفة فى كلية هاركور Collège de Harcourt وكانت هذه الكلية أيضا مخلصة وفية لما ذهب اليه جانسن من المذاهب الاجتهادية فى السلوك والعقيدة الدينية .

وكان راسين فى باريس موكولا الى رعاية ابن عمته نيكولا فيتار Nicolas Vitart وهو ناظر قصر الدوق « لوين « le duc de Luynes » وكان يعيش هنا عيشة ميسورة الحال وقد أنزل راسين فى منزل خاص به تاركا له الحرية في إختيار خلطائه ، واستقبال من يشاء • وسرعان ما انسلخ الفتى عن تعاليم بور رويال الخلقية الصارمة ، وأخذ يغشى الحانات الأدبية وينظم الأشعار الخفيفة الغزلية • وكان من أخص أصدقائه القس « لافاسير « La Vasseur » الذى لم يكن فيه من الكهنوتية شيء ، لا فى صميم طبعه ولا في سلوكه • فهو أقرب الى أهل الظرف والمجون يعالج الشعر ، ويطلب اللهو ويصحب راسين الى مواطنه فى الملاهي والمسارح • كما عقد راسين أواصر الصداقة مع لافونتين La Fontaine شاعر الحكايات الظريف الذى كان يكبره بثمانية عشرة عاما • وهو معروف بأنه كان كذلك من طلاب اللذة فى صحبة الحسان ومجالس الشراب وموائد الطعام ، وكان يحيا حياة بوهيمية فى باريس بعيدا عن زوجته وولده اللذين تخلى عنهما فى ركن من الريف •

ولقد كان من شأن تردد راسين على الوسط المسرحى ومخالطة أهل الفن ، أن تحركت فيه الرغبة الى التأليف للمسرح ، والتطلع عن طريقه الى بلوغ الشهرة والمجد من أوجز الوجوه • فكتب باكورته الأولى وهى تراجيدية أماسيس

Amasis وقرأهـا على مدموازيل روست Mlle Roste
من ممثلات « فرقة ماريه Marais » لكن المسرحية لم تعرف
أنوار المسرح ، ولم يصل الينا غير اسمها · ولم يكن ذلك
ليفت في عضـد راسين فعكف على كتـابة تراجيدية عن
غراميات « أوفيد Ovide » وبذل الوعد بالدور الأول فيها
للمدموازيل بوشاتو Beauchateau من ممثلات فرقة
دار بورجونى Hôtel de Bourgogne فلم تكن هذه المحاولة
الثانية أسعد حظا من الأولى ·

وهنا اتجه راسين وجهـة أخرى فى طلب الشـهرة
والمال ، وهى نظم الأشعار فى تملق أهل السلطان والتزلف
اليهم وطلب مرضاتهم ، فنظم مقطوعة من أربعة عشر بيتا
Sonnet فى مدح الوزير « مازاران » على رغم ما لقى على
يديه من ضروب الاضطهاد جماعة بور رويال ومنهم أساتذة
راسين ناظم القصيدة ، والقصيدة معدودة اليوم فى حكم
المفقودة · وأخيرا سنحت الفرصة الكبرى حين أعلن فى
يونية عام ١٦٦٠ زواج الملك الشـاب لويس الرابع عشر
بالأميرة مارى تريز Marie-Thérèse ابنة فيليب الرابع
ملك أسبانيا · فبادر راسين مع من بادروا من الشعراء الى
التبارى فى نظم الأشعار احتفالا بهذه المناسبة الملكية ،
فنظم قصيدة بعنوان « حورية نهر السين La Nymphe
de la Seine » وتولى ابن عمته « فيتار Vitart » تقديمها
الى الشـاعر الناقد « شابلان Chapelain » عضو الأكاديمية

الفرنسية . فأعجبه منها أنها جارية على السنة المتبعة فى المديح ، وما أخذ به الشاعر نفسه من مراعاة مقتضى الحال ، يجمعه بين الملق وحرق البخور للملك لويس والغزل المهذب الرقيق للملكة العروس ، وذلك كله فى اطار بديع التزوير من مختلق الأساطير . وكان شابلان وقتئذ بمثابة مستشار الدولة الأدبى فدعا اليه المؤلف ، وكانت دهشته عظيمة أن رأى القادم عليه فتى فى نحو العشرين ، فهنأه على ما أتيح له من الملكة الأدبية الباكرة ، وكان من احسانه الشهادة له عند وزير المالية « كولبير Colbert » وعند الملك أن كان نصيبه فى السنة ماية قطعة من النقد الذهبى ، واضافة اسمه فى عداد أصحاب الرواتب الجارية وكان الراتب الذى تقرر له فى السنة ماية جنيه بوصفه من رجال الأدب .

فى جنوب فرنسا : فترة التردد بين الفن والدين

ولم تكن هذه الحال لتروق فى أعين جماعة بور رويال لما كانوا يعلقونه من الآمال على ابنهم الذى أحسنوا تنشئته وتعليمه ، فأغروا به خالا له هو القس سكونان Sconin الذى كان نائبا عاما للأسقف فى مدينة أوزيس Uzès فى اقليم بروفانس جنوبى فرنسا ، فدعاه اليه على وعد بالحصول له على منصب كهنوتى يدخل له منه ريع جاز ، اذا وطن نفسه على الانتظام فى سلك الكهنوت . فانساق « راسين » مع الوعد ، ولبى الدعوة ، وغادر باريس الى حيث مدينة « أوزيس » فى الجنوب الفرنسى ، وذلك فى

أول نوفمبر سنة ١٦٦١ حيث نزل على خاله ، وأظهر الرشاد والعدول عن ضلاله ، والانتهاء عما كان فيه من الغواية واتخذ الحلة الداكنة السوداء ، وعكف على دراسة اللاهوت فى أسفار القديس توما الأكوينى • وهكذا أقام راسين الدليل على صدق نيته ، أو بعبارة أصح على مرونته العجيبة ، بل على حاسة الانتهازية التى قد يؤثر البعض تسميتها بالواقعية •

ولكن الواقع أن راسين لم ينصرف بكليته الى الدين الا فى الظاهر ، فهو لم يمتنع هنا عن الاستمتاع الأدبى بمطالعة أشعار فرجيل ، والتعمق فى مطالعة اليونانية واللاتينية ، فضلا عن دراسته للآداب الاسبانية والايطالية • وتظهر اجادته للغة الايطالية من استكثاره فى رسائله من الاستشهاد بالشاعر الايطالى « أريوستو Ariosto » كما يستدل من رسائله على أنه كان يفكر فى المسرح وينشد موضوعا لمسرحية يضعها •

وهنا يستوجب منا الاشارة الى هذه الحال من الازدواج عند راسين • فقد ظهرت هذه المداولة بين الفن والدين طوال حياته منذ صباه حتى أواخر أيامه ، وان لم يكن حفظ التوازن بينهما ميسورا له فى معظم الأحيان •

ولقد مرت الأيام تلو الأيام على الفتى وهو فى مدينة « أوزيس » صابر ينتظر الحصول على المرفق الكنسى ، وكان حرصه عليه راجعا الى علمه عن طريق الملاحظة المقرونة

بالفطنة وصدق الحس ، أن الأدب ليس بالحرفة التي يؤمن لها ويعول عليها وحدهـا للعيشة الرضية الكريمة • أما الكنيسة فانها تكفل الحياة للكثيرين من أمثاله في ذلك العصر ، كما أن الكثيرين من أبنائها أمكنهم التوفيق بينها وبين وجوه العمل الدنيوى ، سيان فى السياسة أو الأدب أو غيرهما • ومن أجل هذا وحده طال تجلد راسين ــ وهو من أهل الشمال الفرنسي ــ على المقام في بلدة أوزيس في ذلك الجنوب الفرنسى الذى يختلف عن الشمال فى طبيعة أرضه ومناظره وأحوال جوه الذى قال راسين فى صفته أنه فى الصيف كالتنور المسجور • وكان راسين شديد الشعور باختلاف الناس هنا عن مواطنيه الشماليين فى لهجتهم وعاداتهم وتقاليدهم وأساليب حياتهم وطريقة حكمهم على الأشياء ، وخاصة حدة مزاجهم واحتدام شعورهم • فلا غرو اذا كان احساس الفتى الشاعر هنا احساس المنفى الأسير ، فهو على الرغم من تجلده أمام خاله يتطلع الى العودة الى باريس ، كمن يتطلع الى الفكاك من الأسر والنجاة بالنفس ، تنطق بذلك رسائله التى كان يتابع ارسالها من أوزيس الى أصدقائه في باريس ، مثل ابن عمه فيتار و « لافونتين » والقس لافاسير • بيد أن هذه الرسائل يستدل منها الى جانب ذلك على أن شاعرنا الفتى ــ مع اجتوائه المقام فى الجنوب ــ لم يفته هنا مخالسة النظر والتطلع الى النساء من حوله • وفى ذلك يقول فى رسالة له الى « لافونتين » •

... « ولا يسعنى فى هذا المقام الا أن أحدثك بكلمة عن غوانى هـذا الاقليم .. فالنســاء هنا كلهن وضـيئات بأهوات .. ولـكن مذ كان هـذا الأمر أول ما نبهت الى اجتنابه ، فاننى أقف عند هذا الحد فى الحديث عنه . كما أنه من الانتهاك لحرمة بيت يقوم على الورع كالبيت الذى أنا فيه ، أن أعمد الى اطالة الحديث عن مثل هذه الأمور بين جدرانه ، وهو على حد القائل « بيتى بيت عبادة » . ولقد أوصونى هنا أن أكون أعمى . واذا كنت غير مستطيع أن أكون أعمى كل العمى ، فقد وجب على الأقل أن أكون أخرس . وغير خاف عليك أن المرء ينبغى أن يكون مستقيم السيرة مع أهل الاستقامة ، مثلما كنت كالذئب السرحان معك ومع الآخرين الذؤبان من أولاد الحظ الندمان » . ..

ولكن راسين اذا كان قد تكلف العفة هنا من قبيل الحرص على مرضاة خاله ، وما يرجو تحقيقه من وراء ذلك ، فانه كان مهتاج النفس ، ثائر الحس ، لا تفوته ملاحظة طبائع الحب من حوله . فهو لا يملك نفسه من العجب لما كانت يلحظه فى علائق الجنسين عند أهل الجنوب ، من أخذهم الحب مأخذ الجد . فهم لا يعرفون غير ذلك الحب المحتدم المشبوب ، الذى يبلـغ حـد الكوميديا حينـا ، والتراجيديا أحيانا . أما الحب فى حده الوسط ، فليس له هنا وجود على حد ما ذكره « راسين » فى احدى رسائله .

وقد أورد « راسين » المثال على ذلك فى واقعة حال رواها فى عبارة مؤثرة وان كانت موجزة ·

واذا كنا قد حرصنا من جانبنا على ايراد هذه التفاصيل ، فذلك لاعتقادنا أنه غير مستبعد أن تكون اقامة راسين من أوائل نوفمبر سنة ١٦٦١ الى أواخر يولية سنة ١٩٦٦٢ فى الجنوب قد أفادته ــ على قصرها ــ معرفة بذلك الحب المشبوب الذى وصفه فيما بعد فى تراجيدياته التى لا يلقى القارىء فيها بطلا الا كان هواه قد بلغ به غاية مداه ·

ولقد زار الفتى « راسين » أثناء مقامه فى الجنوب بلدة « نيم Nimes » التى تمتاز بما خلفه الرومان فيها من الآثار الباقية ، وأهمها الملعب المدرج المسمى « العرينة Arena » ، وهو ــ كما يصفه « راسين » فى احدى رسائله ــ مبنى كله من الأحجار الضخام منضدة بعضها فوق بعض بحكم ثقلها الذى أغناها عن الملاط ، ومن ثمة لا تزال قائمة على حالها منذ ألف وستمائة عام · ويتكون خارجه من أقواس ذات عقود وحنايا وطاقات عظام ، وليس فى داخله على مداره كله الا مقاعد حجرية ضخام ، حيث كان الخلق أجمعون يجلسون للفرجة على المشاهدة المروعة التى اعتاد الرومان عرضها ·

وهكذا استقرت فى نفس الفتى راسين ــ الى جانب ما قرأه عن الرومان ــ تجربة الحس والعيان ، وارتسمت

مناظر مسرحياته المستقبلة عن برتانيكوس Britanicus وبيرنيس Bérénicc في خياله منذ مقتبل شبابه ·

ولولا ضيق المقام لذهبنا الى أبعد من ذلك في عرض هذه الرسائل التي بعث بها راسين الفتى من الجنوب ، فانها أصدق ما بين أيدينا في الدلالة في وضوح على كل ما انطبع عليه راسين من دقة الفهم ولطافة الحس ورهافة الذوق الى جانب تكلفه الاحتشام والتزامه التحفظ وأخذه بمصطلحات الأدب ورعايته لمراسمه ، فضـلا عن ازدواج شخصيته وامتزاج النقائض في طبيعته ·

في باريس للمرة الثانية والأخيرة

راسين يعود الى الفن

وقد كان من حظ الأدب المسرحي وسـعد شـاعرنا الناشيء أن لم يوفق خاله القس في مسعاه للحصول له على الراتب الكهنوتي الذي كان مقصودا به ادماج الفتى في زمرة رجال الكنيسة · فلم يلبث الفتى راسين أن نفد صبره فعاد أدراجه الى باريس في يولة عام ١٩٦٢ ·

ولكن راسين عاد وما يزال في نفسه شيء من ذلك المرفق الكهنوتي لرسوخ اعتقاده بأنه وحده السبيل لضمان المعاش على حساب الكنيسة من غير تقييد لحريته في مزاولة ما هو مؤهل له من العمل الأدبي بحكم موهبته والواقع

أنه لم يكن في ذلك العهد أكثر من الكرادلة والأساقفة وغيرهم من رجال الكنيسة الذين تجرى عليهم أرزاقها ، وهم في الوقت نفسه يتبوأون المناصب الدنيوية في الدولة ، ويشتغلون بالشئون العلمية والأدبية ، وفي سائر الميادين التي لا تمت بالسبب المتين الى الدين .

وهذا هو السر في أن راسين مع عودته الى باريس ومفارقته خاله لم يفقد الأمل في الاعتماد على سنده . ولقد صح ما توقعه ، اذ حصل له خاله على أكثر من مرفق في مرافق الكهنوتية في أكثر من أبرشية ، ولم يزل راسين محتفظا بأحدها حتى عام ١٦٧٣ في غمرة حياته المسرحية وأوج انتصاراته ، وبذلك تحقق حلمه في الجمع بين الكسب الديني والدنيوى . وكان مثله في ذلك الجمع صديقه « بوالو » ، الا أن صاحبه بوالو حرص بعد اشتغاله على توزيع نصيبه من المرفق الكنسى على الفقراء . وهذا الفارق بين تصرف الشاعرين يدلنا على ما كان في طباع راسين من المرونة والمطاوعة في الانسياق الى ما تكون له فيه مصلحة .

وفي باريس سعى شاعرنا الشاب الى ابن خالته « انطوان » فيتار « Antoine Vitart » ونزل عنده بعض الوقت في دار ليونيس L'hôtel de Luynes مترقبا فرصة مواتية جديدة ، ينظم فيها قصيدة من شعر المناسبات ، تدر عليه بعض المال وتفتح له باب الكسب

وقد كان من شأن وفاة جدته فى يولية عام ١٦٦٣ أن زاد انحلال الروابط الظاهرة التى كانت تربط بجماعة بور رويال ، فزاد شعوره بالاستقلال عن الدير ، وحريته فى الانطلاق فى طلب الحظوة عند القصر · وقد سنحت للشاعر الفرصة حين أبل الملك من وعكة كانت قد حجبته بعض الوقت ، فنظم قصيدة عنوانها شفاء الملك La convalescence du Roi ، وكانت هذه القصيدة كذلك موضع التفات « شابلان » ، فأعيد اسمه فى أوائل عام ١٦٦٢ ، الى كشف أصحاب المرتبات ، وكان نصيبه هذه المرة ثمانمائة جنيه · ثم تكرر درج اسمه فى السنة التالية جزاء له على قصيدة أخرى عنوانها « الاشتهار لدى ربات الأشعار Renommée aux Muses » وفى هذه القصيدة لم ينس شاعرنا أن يذكر الى جانب الامبراطور أغسطس العظيم نديمه « ميسين Mécène » نصير الأدب الكريم ، اشارة الى الملك لويس الرابع عشر ووزير خزانته « كولبير » وقد اطلع الناقد « بوالو » على هذه القصيدة فأعجبته ، فقامت بين الرجلين منذ ذلك الحين صداقة متصلة ، طال مداها وآتت جناها حتى فصم الموت عراها ·

وفى هذه الأثناء كان راسين قد حظى بتقدير أحد الأشراف من أصحاب الألقاب « الكونت سان ايتان Saint-Aignan » ، فأتاح هذا الشريف له الوصول الى البلاط الملكى · وهنا فى البلاط كان لقاء راسين و « موليير » ،

فقد اتفق فى ذلك اليوم أن كان كلاهما فى عداد من لهم شرف شهود قيام الملك من نومه ، كما جرت العادة للمحظوظين كل صباح ، للتطلع الى بهاء حسنه والتكبير لمطلع شمسه ، وهو شرف عظيم فى تلك السنين • فاتصل بين الشاعرين الكلام ، وكان من آثار هذا الاتصال أن وجد راسين فى صديق الساعة ، رجل المسرح الكبير ، سندا له فى عالم التمثيل • ولقد كان عن طريق هذا الصديق أن أخذت بواكيره المسرحية طريقها الى أنوار المسرح ، مسرح موليير نفسه •

البواكير الأولى على المسرح

١ ـ مسرحية طيبة أو الشقيقان المتعاديان •

٢ ـ مسرحية الاسكندر الأكبر •

زعم الزاعمون أن موليير العظيم ـ بوصفه صاحب فرق تمثيلية عرفت طريق الشهرة كما هو معلوم ـ اقترح على المؤلف الناشىء راسين حين جمعتهما المصادفة فى القصر الملكى موضوع مسرحيته الأولى « طيبة أو الشقيقان المتعاديان » ، ولكن هذا الزعم يفنده ما يقال من أن راسين بدأ هذه المسرحية قبل ذلك فى أثناء مقامه فى الجنوب عام ١٦٦٢ ، فقد جاء فى رسائله فى تلك الفترة ما ينص على عكوفه لاتمام المسرحية ، ومثل هذا الكلام عن اتمام المسرحية لاتمامها والفراغ منها ، ولا أحسبنا فى حاجة الى هذه الأدلة

وما هو من قبيلها ، فان القارىء حسبه أن يعود الى القراءة لمسرحيات راسين ، ليقرر فى ذهنه أن صاحبها لا يمكن أن يكون متخرجا فى مدرسة موليير ، فكلاهما مستقل عن الآخر بطبعه ومزاجه ومنازع تفكيره وأسلوبه وطابع فنه ، ولا عبرة بما كان من عرض المسرحية الخاصة براسين ، على مسرح فرقة موليير ، فان نية راسين كانت متجهة فى أول الأمر الى أن يكون عرض تمثيليته على مسرح دار بور جونى ، ولكنه نظرا لتقديم ثلاث مسرحيات عليها ، خشى من تأخير عرضها ، فقرر آخر الأمر أن يدفع بها الى فرقة موليير .

ولما كان المجال لا يتسع لاطالة الجدال ، فاننا نكتفى منه بما قدمناه ، ونعود الى ما كان بعد ذلك من واقع الأمر : وهو أن الفرقة التى عرضت تمثيلية راسين الأولى هى فرقة موليير ، وذلك على مسرح باليه رويال فى العشرين من يولية عام ١٦٦٤ .

ومما هو جدير بالذكر فى صدد هذه المسرحية أولى مسرحيات راسين ، ما كان من قبيل عرضها ورود رسالة على راسين تنطوى على نداء مؤثر من بور رويال ، وكانت الرسالة من عمته من الراهبة الأخت « انييس Agnès » وهذا نص ما كتبته الى راسين :

« أكتب اليك من فرط ما فى قلبى من مرارة ، وأنا أذرف دموعا وددت لو استطعت أن أذرفها مدرارا بين يدى

الله لعلها تشفع لك فيما ألتمسه لك من المغفرة والخلاص ·
لقد علمت مع شديد الألم ، أنك اليوم أكثر غشيانا لمجالس أهل السوء ممن يستكره سماع أسمائهم كل من فى قلبه أقل ذرة من التقوى · وكيف لا ، وهم محرومون مما أحل للمؤمنين من دخول الكنيسة وتناول القربان حتى وهم على فراش الموت ، الا اذا أقروا بذنبهم وتابوا وأنابوا وارعووا عن هواهم وعاودوا هداهم · فانظر يا ابن أخى ، وتمثل ما يمكن أن تصير اليه حالى ، وأنت لا تجهل مبلغ ما كنت أكنه لك على الدوام من محبة وحنان · وأننى لم أتمن على الله الا أن تكون خالصا لله فى عمل من صالح الأعمال ·

« ناشدتك الله يا ابن أخى ، أن تشفق على نفسك وأن ترجع الى سريرتك ، لترى الهاوية التى ألقيت بنفسك فى مهالكها · انى لأرجو أن لا يكون ما سمعته عنك صحيحا · أما اذا كان قد بلغ من تعسك وشقوتك أن لا تكون قد انقطعت عن مخالطة تلك البيئة التى تصمك وتشينك أمام الله والناس ، فاصرف وجهك عنا ولا تفكر بعد اليوم فى زيارتنا » ·

ولا حاجة الى القول أن كتاب العمة بما يحمل من مضاضة ألمها وهول فزعها وتهديدها بالقطيعة ، كان صدمة قاسية لابن أخيها راسين ، ولكن مثل هذه الضربة فى قسوتها وشدتها وحسمها لم تكن من طبيعتها أن تترك موضعا للتوفيق وتدبير اللقاء فى منتصف الطريق · ومن

ثمة زادت الفتى اندفاعا فى انغماسه فى « البيئة الشنعاء » ٠ وقد ساعدته فورة الصبا ونزوة الطموح على اخفات نداء عمته ، وان كان لم يزل فى أعماق قلبه يحيا صداه ، الى أن وجد منه السميع المجيب بعد سبعة عشر عاما ٠

وهكـذا دفع راسـين بمسرحيته الأولى « طيبـة أو الشقيقان المتعـاديان » ومدار هذه المسرحية التناحر على عرش طيبة بين ولدى أوديب وهما « ابتوكل وبولينيس » في القرن الرابـع عشر قبـل المسيح ٠ وكان « ايتـوكل Eteocle » قد تربع على العرش بعد وفاة أبيه ، فثـار بولينيس Polynice وضرب الحصـــار حول أخيه فى المدينة ٠ وعبثا حاولت أمهما جوكاست Jocaste وأختهما أنتيجون Antigone عقد الصـلح بينهما ٠ أما خالهما كريون Creon فكان على العكس يذكى نار الحرب بينهما حتى يقضى كل على الآخـر فيخلص له العرش الذى كان طامعا فيه ٠ وقد التقى الأخوان وجها لوجه يقتتلان وكان هيمون Hemon ابن كريون متعلقا بحب أنتيجون فحاول فصلهما فوقع قتيلا بينهما وانتهى الصراع بأن هلك أحدهما على يد الآخر فانتحرت الأم وخلا العرش لوريته كوريون الذي ما كاد يعتليـه حتى أراد الزواج من ابنـة أختـه أنتيجون ، فكان ردها أن قتلت نفسها فبلغ الوجد والندم من كريون أن قتل نفسه كذلك ٠ وبذلك انتهت التراجيديا الأولى لراسين وأبطالها صرعى أجمعين ٠ وخلاصة القول فى

هذه التراجيديا أنها تحمل فى الصميم أثر سالفه كورنى العظيم .

ولا عجب فى ذلك ، فان راسين وهو في الثالث والعشرين لم يكن قد صار وقتئذ راسين ، كما أن كورنى كان النموذج المحتذى والامام الذى يجب أن يأتم به سائر الشعراء التراجيديين .

ولقد سبق شاعر من شعراء القرن السابع عشر شاعرنا راسين بربع قرن الى تناول هذا الموضوع وهو الشاعر « روترو Rotrou » فى مسرحيته « أنتيجون » التى كان أول عرض لها عام ١٦٣٨ ، ولكن راسين اذا كان قد أفاد منها ، فانها استفادة عكسية على حسب دعواه لأنه عمد الى مخالفتها فى طريقة بنائها ، أما الذى احتذاه وأفاد منه على حد قوله ، فهو علم من أعلام التراجيديا اليونانية القديمة ونعنى به « يوريبيدس » Euripide فى مسرحية « الفينيقيات » ، ولكنه لم يشر الى العلم الآخر للتراجيديا اليونانية « اسكيلوس » Sénèque فى مسرحيته التى تدور على الموضوع نفسه وهى « السبعة ضد طيبة » .

ولما كان المؤلف التراجيدى الرومانى « سنيكا Sénèque له مسرحية تحمل الاسم نفسه الذى تحمله مسرحية راسين وهو « طيبة Thébaide » فأن شاعرنا يجردها من كل قيمة ، ويزعم أنها دخيلة على سنيكا

ولا يمكن أن يكون لكاتبها أدنى معرفة بما هى التراجيديا ، ولا يمنعنا هذا من القول بأن مسرحية راسين جاءت أبشع دموية وأكثر احتشادا بالجرائم والقتلى حتى ليوشك أن لا يبقى فيها ممثل لم يلق مصرعـه فى ختامها ، ويقول راسين أنه لا ذنب له فى هذا ، فان موضـوعها كسائر ما يتصل بأوديب وأسرته التعسة هو فى ذاته أفجع ما رواه الرواة فى الزمن القديم .

وكان عزم شاعرنا الشاب راسين عرض هذه التمثيلية الأولى على مسرح بورجـونى الذى كان مشـــتهرا بتقديم بتقديم التراجيديات ، وقد حدد هذا المسرح لتقديمها فى أواخر عام ١٦٦٣ م ، وكان الشاعر قد أشعر ممثلة من أوائل ممثلاته وهى الآنسة « بوساتو Beauchateau » بميله اليها ، وكانت تعتمد عليه فى اختيارها لدور فيها ، ولكن مسرح بورجونى تأخر فى تقديم المسرحية فى الموعد المحدد ، فنقم راسين ذلك على الرغم من كونه مؤلفـا من المبتدئين ، واسترد تمثيليته ، ودفع بهـا فى الحال الى المسرح الآخر المزاحم ، وهو مسرح موليير حيث قدمت فى العشرين من يونية عام ١٦٦٤ م ، على مسرح باليه رويال ، ولكن المرجح أن موليير لم يشترك فى أدوارها ، وقد تكرر تمثيلها أكثر من مرة فى سراى فرساى ، كما قدمت فى قصر فونتابلو احتفالا بمبعوث البابا ، وقد أبدى الملك لويس الرابع عشر عطفه على الشاعر ، وأمر له بمنحة قدرها

٦٠٠ جنيه ، ومن عجيب ما يذكر أن الاشارة التى دونت فى سجلات الوفيات فى بور رويال عند موت راسين تشير الى « راسين مؤلف مسرحية طيبة » كأنما يعتبرها هؤلاء القوم فى روعهم أولى مسرحياته وآخرها ، أما لخلوها من الحب أو تذكيرا بما انصب على أبطالها من لعنة الآلهة .

٢ ـ مسرحية الاسكندر الأكبر :

ولما كان ما أصابته المسرحية الأولى من نجاح لا يمكن أن يعد قليلا على مؤلف ناشيء مثل راسين فلا غرو اذا هو عكف بعدها على التأليف المسرحى ، فأخرج لنا بعد بضعة شهور تراجيديا أخرى هى الاسكندر الأكبر ، وكانت التراجيديا فى هذه المرة غير أسطورية بل تاريخية ، وقد جعل المؤلف اهداءها للملك لويس الرابع عشر في تواضع مصطنع لما اجترأ عليه من تناول مثل هذا الموضوع الجليل ، ولكنه عاد بعد عشر سنوات الى التقديم لهذه التراجيديا نفسها بقوله « لقلما توجد تراجيديا أكثر التزاما للصدق التاريخى من هذه التراجيديا » .

والواقـع أن موضـــوع الاســكندر مأخـوذ عما كتبه عن ســيرته المؤرخ اللاتينى « كوينت كورتيـوس Quinte-Carlius Rufus » والمؤرخ اليونانى « بلوتارخ » وكلاهما ممن عاشوا فى القرن الأول الميلادى . أما الأول فهو أدخل فى أصـحاب البيان منه فى المؤرخين ، ومع

ذلك فقد اشتهر بالتاريخ الذى كتبه عن الاسكندر الأكبر ، وهو فى عشرة أجزاء ، ضاع منها الأول والثانى ؛ وظاهر فى الأجزاء الثمانيــة الباقيــة أن الكاتب لم يكن يعنيه التمحيص التاريخى فى كتابة ، وانما كان هدفه أدبيا من حيث أناقة العبارة وحيوية التصوير وابراز الشخصيات فى أسلوب ممتع ، وان كان ذا طابع خطابى • أما المؤرخ الثانى بلوتارخ اليونانى فهو صاحب الدراسات المقارنة فى تاريخ مشاهير الرجال من اليونان والرومان ، وهو يتتبع المترجم لهم فى حياتهم العامة والخاصة مما يتيح لنا النفاذ شخصياتهم وصميم طباعهم ، على الرغم من وقوعه فى بعض الأغلاط والمآخذ واقحامه الأخلاقيات على الواقع التاريخى •

وتتلخص هذه المسرحية فى تقدم الاسكندر بعد غزو فارس الى غزو بلاد الهند الشاسعة العظيمة ، حيث يواجه من ملوكها العاهل الكبير « فور Porus » والأمير « تاكسيل Taxile » ، ومن ملكاتها الأميرة « كليوفيل Cleophite » أخت تاكسيل والملكة « اكسيان Axiane » ولا يلبث الحب أن يتصــل بين الاسكندر والأميرة كليوفيــل ، على حين يتزاحم فور وتاكسيل على حب الملكة أكسيان • وأما من ناحية الموقف السياسى ، فان للعاهل فور والملكة أكسيان يريان الثبات على مقاومة الاسكندر ، فى حين تحث كليوفيل أخاها تاكسيل على مسالمته والتسليم له ومحالفته • ولما كان تاكسيل قد فقد كل رجاء فى عطف الملكة أكسيان

ومبادلتها حبه بمثله ، فانه يتعمد التعرض للهـلاك فى المعركة الطاحنة الدائرة بين فور والاسكندر ، وأما الملك فور والملكة آكسيان فقد بلغ من تأثرهما من كرم الاسكندر معهما ، أن طاب لنفسهما الاقرار له بالغلبـة والتسليم ، فصفا لهما قلبه ، وجمع بينهما بالزواج ، وأعـاد اليهما ملكهما ، وفى الوقت نفسه تزوج الاســـكندر بالأمـيرة كليوفيل ٠

وعلى هذا الوجه تكون المسرحية الثانية ، التى يقوم ختامها على الحب ، مخالفة للمسرحية الأولى التى قامت على الكره ، حتى لا يكاد أن يكون للحب فيهـا شأن كبير ٠ وهكذا يقترب راسين من مجال عبقريته وحقيقة ميدانه كما سيتضح لنا من مسرحه فى مستأنف أيامه ، حين تكمل له قدرته على خلق أبطال لمسرحياته ، يستطيع فيها كل منهم الجمع على حد سواء بين حبه وبطولته ٠

ولقد طلع علينا راسين فى هذه المسرحية ، بصـورة حية للبطل المقدونى ، فى معركته الكبرى مع عاهل الهند الكبير « فور » ، ومناورته مع صـغار الأفيـال الأخرى ، وما كان من مواقفه الكريمة معهم ٠ ولكن معـاصرى راسين أخذوا عليه التقصير فى تصوير عبقرية الاسكندر وشجاعته ومجالى عظمته ، باعتبار أن العظمة هى أول ما كان عليه معالجته ، خلافا لما توخاه راسين فى تراجيديته من ابتعاث الرحمة والاشفاق على ما آل الى حال العاهل الهندى « فور » ،

فضلا عن تصوير غرام الاسكندر بالحسناء كليوفيل أخت حليفه الهندى الأمير تاكسيل ٠

وهذا الذى أخذه على راسين معاصروه ، وهو بعينه ما نرى فيه اليوم أصالته ، وهو بعينه ما يعنينا ويلمس نفوسنا ويؤثر فينا ، أما المشاهدون فى عصره ، فقد كان موضع التفاتهم ومناط اهتمامهم من الاسكندر المقدونى ، البطل الشاب الباسل المقدام الأريحى ، هو أن يروا فيه صورة لملكهم لويس الرابع عشر ، ومن ثمة أخذوا على المسرحية ما أخذوه وقتئذ ، أما الآن بعد فوات ذلك الأوان ، فان أمثال تلك المناجاة الغرامية بين الاسكندر والحسناء الهندية يعتبر فى طليعة المشاهد التى تستهوى المشاهدين وتطربهم ، وتأخذ بمجامع قلوبهم وتملك عليهم مشاعرهم ٠

ومما يذكر أن راسين حين فرغ من تأليف تراجيديته ، حملها الى كورتى يسأله عن رأيه فيها ، فأثنى الشيخ على نظمها وصياغة شعرها ، ولكنه جاهر بالتصريح بأن المؤلف الشاب لا يلوح فى نظره مقتدرا على معالجة الشعر المسرحى ٠

أما فيما يتعلق بعرض التراجيدية ، فقد كان راسين قد بذل وعده لصديقه موليير بأن يعهد الى فرقته التى مثلت المسرحية الأولى بتمثيل مسرحيته الثانية وهى

مسرحية « الاسكندر » ، ومن ثمة فقد دفع راسين بها اليه فأعدتها فرقته دون اشتراكه في دور من أدوارها ، وكانت حفلة الافتتاح في الرابع من ديسمبر عام ١٦٦٥ على مسرح بالية رويال ، أمام نخبة من الجمهور منهم القائد كوندى الكبير وهنريت انجلترا وأخو الملك ، وكان فى طليعة الممثلين « لاجرانج La Grange » ومدموازيل دى بارك Mlle du Parc والآنسة « مولبير » • ولكن راسين رغم ممثلى الفرقة لا يجيدون أداء الترجيديا ، واستنادا على هذا دفع بنسخة المسرحية بعد خمسة عشر يوما من تمثيلها ومن غير استئذان موليير صاحب الفرقة التى تمثلها الى فرقة أوتيل دى بور جونى •

وهكذا كانت المسرحية تمثل على المسرحين فى وقت واحد وبنجاح متقارب •

ومهما يكن مقدار الحقيقة فى حجة راسين فان شيئا من ذلك لا يخفف مما أظهره شاعرنا من الكنود نحو موليير ونكران جميله ونسيان تأييده • وقد بلغ من استياء موليير أن قطع ما كان بينهما من الصداقة بقية حياته •

وقد حدث في الوقت نفسه أن قامت الشحناء بين راسين والبور رويال عام ١٦٦٦ • وذلك أن أستاذه « نيكول » حمل فى رسالة له على أحد شعراء المسرح وذهب الى أنه يدس للناس السم الذى يصيبهم ، لا فى أجسادهم ، بل فى ما هو أعز منها ، فى أرواحهم المؤمنة ، وأن عليه

أن يقر الى نفسه بأن يحمل وزر أفواج كثيرين ارتكب فى حق نفوسهم جريمة القتل • فاذا صاحبنا راسين — على الرغم من أن الكلام غير موجه الى شخصه فضلا عن أنه لم يشتغل بالمسرح الا منذ قليل — يزعم أنه المقصود بهذا الاتهام ، فينشر على الملأ ردا مقذع الهجاء يحمل فيه حملة شعواء على بور رويال •

ولم يقف عند هذا الرد ، بل أعد رسالة أخرى وهم بنشرها لولا أن تدخل « بوالو » وثناه عن عزمه قائلا أن هذه الرسالة قد يتشرف بها قلم الأديب ، ولكنها لا تشرف قلبه • فطواها راسين ، فلم تنشر الا بعد موته •

راسين ومسرح الحب

رأينا كيف كانت أولى تراجيديات راسين على المسرح وهى « الشقيقان المتعـاديان » ، موضـــوعها أسطورى ، ومدارها الكره ، وتكاد تكون خالية تماما من الحب ، ثم رأينا تحوله الى الحب فى المسرحية الثانية وهى تاريخية ، يدور موضوعها على فتح الاسكندر للهند ، ومعاركه مع ملوكها وأفيالها ، وما كان من اختلاف موقفهم تجاه الفاتح العظيم ، فها هم أولاء الملكان الهنديان «فور» و «تاكسيل» ، يختلف أحدهما عن الآخر ، اذ كان أحماهما أنفة ، وأشدهما اباء ، ونخوة ، الملك « فور » الذى أقام فى انتظار الاسكندر رابط الجنان ، ثابت العزم ، وقد تأهب لقتاله على حين

انصرف « تاكسيل » بكل فكره الى مفاوضته ولكن « فور »
زغيم المقاومة اذ كان لم يجد وقتئذ بين أقيال الهند نفيسا
كنفسة ، شعورا بالعزة وحفاظا على كرامة الحسب وعلو
المقام ، فانه كان سعيد الحظ اذ وجدها فى الملكة الهندية
« أكسيان » التى أحبته وأحبها • غير أنه مما يستلفت
النظر هنا أن هذا الحب المتبادل وان أذكى فيهما روح
البطولة ، الا أنه للأسف أفسدها ، فقد أخذ يطيب للملك
« فـور » أن يردد أنه يحارب من أجـل عينى حليفتـه
« أكسيان » ، الحبيبة ، أكثر مما يحارب من أجل حرية
بلاده ، على حين كانت « أكسيان » ــ من قبيل ما جبلت
عليه من حياء المرأة ــ أكثر حديثا عن المجد منها عن الحب •
كذلك نرى الاسكندر البطل المقدونى من فرط غلبة الحب
عليه ــ كما صوره المؤلف ــ يبدو كأنما اضطلع بهذه الحملة
على الهند فى طلب الحسناء « كليوفيل » ، ومن أجل جمال
عينيها • ويضاف الى ذلك أن هذا الحب الذى شغل أبطال
هذه الحرب العظمى بين الغرب والشرق لم يزد على كونه
ــ كما تصوره تراجيدية الاسكندر ــ حبا روائيا من قبيل
الحب الذى أشـاعت لونه فى الأدب الفرنسى فى أوائل
القرن السابع عشر قصة « استريه Astrée » الرعـوية
الغرامية وبطلها « سيلادون Celadon » العاشق المدنف •

على هذه الصفة رأينا الحب في تراجيدية الاسـكندر
الأكبر لشاعرنا راسين عام ١٦٦٥ ، ولكن راسين لم يلبث

على حين بغتة أن طلع على رواد العروض التمثيلية فى دار بور جونى بآيات مسرحه الجديد « مسرح الحب » العارم القوى ، الذى زاحم مسرح كورنى البطولى ، وخلفه واحتل مكانته عند الجمهور ، وكانت أولى آيات هذا المسرح الجديد « أندروماك » ٠

ولقد ذهب أكثر النقاد الى أن هذا التغيير المفاجىء انما جاء على أثر اتصال المعرفة بين شاعرنا راسين والناقد « بوالو » ، الذى أحسن توجيهه ٠ ولكن المسألة هنا لا تتصل بالبناء المسرحى أو الصناعة الشعرية حتى يغنى فيها التوجيه ، وانما هى تتصل بما وراء أداة التعبير الى مادته ، وهى صدق الشاعر فى شعوره بالحب وعمق انفعاله به وشدة اندفاعه معه ٠ ولا يخفى أن الأستاذ بوالو نفسه كان مفتقرا الى هذا الفيض الوجدانى فى شعره ، وحتى على فرض توفره فى بوالو فانه لا سبيل الى معرفة الوجدانيات الا بالتجربة الشخصية والمعاناة على حد قول الشاعر العربى :

لا يعرف الشوق الا من يكابده

ولا الصبابة الا من يعانيها

فمن يا ترى كان هذا الأستاذ الآخر الكبير الذى كان صاحب الفضل فى هذا التغيير ؟ أنه فيما نعلم علم اليقين ذلك الحب المتقد المضطرم كالسعير ، المندفع كالسيل العارم ذى الهدير ، الذى شب فى حسه وطغى على نفسه ،

حين لقى الممثلة « دى بارك Duparc » الغضة الشباب ، الناعمة الآهاب ، البارعة الجمال ، المثيرة الدلال •

كانت دى بارك ممثلة كعامة الممثلات ، فقد كانت لفرط جمالها الفتان بارزة للعيان ، يشار اليها بالبنان فى فرقة موليير ، ويقال أن موليير كان يخطب ودها ويحاول مراودتها والحظوة عندها ، ومن المؤكد أن المؤلف الشاب راسين كان قد أحبها حين خصها بدور « الملكة أكسيان » فى مسرحيته الثانية « الاسكندر » ويدلنا على ذلك أنه حين قدم نسخة من هذه المسرحية ـ أثناء تمثيلها فى مسرح موليير ـ الى مسرح دار بورجونى لتمثلها فى الوقت نفسه ، مستهدفا لوقوع النبوة بينه وبين صديقه صاحب المسرح الأول ، أعقب ذلك أن انتقلت دى بارك الى مسرح بوجونى ، مما يرجح أن ما وقع بين الصديقين من قطيعة لم يكن من أجل التمثيلية وحدها ، بل كان للمزاحمة الغرامية بينهما النصيب الأكبر •

وكانت الشابة الحسناء قد تزوجت من الممثل الهزلى الشهير « رينيــه بارتلو René Barthelot » ، الذى اشتهر باسم « رينيه التخين Gros-René » بفــرقة موليير ، ومن أجل ذلك ضمتها الفرقة ، وكانت فى العشرين من عمرها شابة قوية البنية ، لدنة الأوصـــال ممشوقة القامة ، مرفوعة الهامة ، ذات هيئة وسمت ، وكانت واسعة العينين ، ذات أنف أذلف ، وثغر جميل الثنانيا ، واهاب

ناضر ، ولون زاهر ، فلا عجب اذا قيل أنه لم يكن وقفا على زوجها تأثير حسنها والاعجاب به • ومن أجل هذه المحاسن الرائعة كان تقديمها على المسرح مع ما كان من قصور فنها عن أمثالها • ولقد وقع في فتنة هذا الجمال كثيرون من وجوه القوم وأغنياء التجار والشبان ، أثناء جولة الفرقة فى أقاليم فرنسا • وكان ممن استخفتهم فتنتها فى مرور الفرقة بمدينة « روان » شيخ المسرح الفرنسى الشاعر الكبير « بيير كورتى » • فاذاهو على الرغم من علو سنه يزاحم فيها الشباب معتمدا على شعره • وكان الشاعر قد انقطع وقتئذ عن التأليف المسرحى ، ولكن ماضيه كان على كل لسان ، ومن ثمة سبقت أشعاره الممثلة الحسناء الى باريس ، حيث مهدت لها الطريق ، ولولا ما كان من زواج موليير بالصبية الجميلة « ارماند بيجار Armande Bégart » فى ينار عام ١٦٦٢ ، وما أوجب ذلك عليه من ايثار زوجته لعل فيه بعض التعويض لها عن شيخوخته، لما ظلت الغانية الحسناء دى بارك فى ذيل الممثلات الأوائل من أمثال « مادلين بيجار » التى كانت صديقة موليير قبل زواجه من أختها الصغرى ، ومن بعد « كاترين دى برى Catherine de Brie » فضلا عن الزوجة الصبية •

وكان الوضع على هذه الحال ، حين قدم راسين تمثيلية الأولى الى فرقة موليير ، وكان عرضها فى يونية عام ١٦٦٤ ، فلم تظفر دى بارك بدور فيها • ولكن كثرة غشيان راسين لمسرح موليير — كما قدمنا — وتردده

عليه أثناء التدريب على تمثيليته ثم أثناء عرضها ، لفت نظره إلى جمال دى بارك ، كما لفت نظر دى بارك الى وسامته وشبابه ، والأمل فى سنوح الفرصة للعمل مستقبلا فى احدى تمثيلياته • وهذه هى قد صح حدسها وتحقق حلمها حين خصها الشاعر عام ١٦٦٥ ، فى مسرحيته الثانية « الاسكندر » بدور الملكة الهندية « أكسيان » ، ذات السمت والجمال التى وقفت الى جانب الملك « فور » الذى أحبته ، فى وجه الاسكندر المقدونى ، وهو وقتئذ صاحب الحول والطول ، ومما يلفت النظر هنا تحول راسين من محور الكره فى تمثيليته الأولى الى القطب الآخر ، وهو الحب فى تمثيليته الثانية • ولما كان زوج الممثلة قد توفى فى أكتوبر عام ١٦٦٤ وصارت لذلك أكثر انطلاقا ، فقد زاد مع الوقت اتصال راسين بها وملازمته لها • ولم يكن راسين وهو الفتى البورجوازى الناشىء فى بيئة متزمتة ، بالذى يطيق ما يجده فى هذا العالم الجديد من كثرة الاختلاط وسرعة الصداقات التى لا يطيقها محب غيور مثله ، فلا غرو يتدخل فى نظام هذا البيت ويقلبه رأسا على عقب ، فيمنع عنه زيارات أهل الغزل ، ويعترض تيار الهدايا الواردة من كل صوب • فكان رد الفعل أن أخذت تتمرد الأسرة وتتآمر النساء على هذا الوضع ، ويحرضن الخليلة الجميلة على العصيان والوقوف فى وجه هذا الفتى المستبد • فيقع التصادم بين الحبيبين ، وتقوم العواصف ، وترعد الرعود ، وتتساقط الصواعق • • فاذا أثر ذلك كله

ينعكس على ما يكتب راسين بعد ذلك من التراجيديات التى تألف منها فيما بعد « مسرح الحب » الذى كان راسين مبتدئه ومنشئه فى فرنسا ، وأولى روائعه « آندروماك » . وهى التراجيدية التى قامت خليلته « دى بـــارك » بدور بطلتها ...

والواقع أن جمال « دى بارك » ، وجلال سمتها وهيئتها ، وخيلاء حركتها ومشيتها ، ورفعة هامتهـــا . كانت موافقة لشخصية البطلة . ولكن تمثيلها حتى ذلك الحين كانت تنقصه الحرارة مع ما فيه من المبالغة والتفخيم . وهكذا كان على مسرح بورجونى أن يوطن النفس على أن يقبل مع التراجيـــدية العظيمة ممثلة غير عظيمة ! ولكن « دى بارك » التى جاء بها راسين ، لم تكن « دى بارك » المعهودة حتى ذلك الحين ، لقد أصبحت من صـــنع يده ، يكاد يكون شأنها فى ذلك شأن تراجيديته . أجل ، انها اليوم صنع مخه وصنع ارادته ، فقد حفظت الدور تحت قيادته فى كل مشهد من مشاهدة ، فى كل مقطوعة شعر ، فى كل بيت ، فى كل شطر ، وقد نفذت الممثلة المحبـــه المحبوبة كل شىء على أدق متطلباته . بل أفادت فوق ذلك أنها ــ الى جانب ضحكاتها ــ قد تعلمت على يديه البكاء . فما أكثر ما كان من اصطدام طباعهما ، حتى ليخال أنهما أعداء ، وكان راسين فى هذه اللحظات يكرهها أشد الكره ، فيتعمد أن يجرحها وأن يبرع فى جرحها أوجع الجراح . فاذا اشـــتد الايذاء بالممثلة وأجهشـــت فى البكاء ، أحس

بالعطف عليها متفجرا فى جوانبه ، وبالحب تتقد به كل قطرة دم تجرى فى شرايينه ، وتبعث الحرارة مثـــل نار السعير فى أقصى مراكز حسه ، وأعمق أغوار نفسه •

هنا انصهرت « دى بارك » الممثلة الحسناء ، وخرجت من هذه البوتقة تلك الممثلة التراجيدية الرائعـــة ، التى أجادت اللعب والبكاء فى « أندروماك » فملكت من أهل زمانها مجامع القلوب والنفوس والألباب واستولت منهم على النواظر والأسماع وجميع الحواس ، حتى أصبح أهل زمانها كلهم من المعجبين ، فاســـتتبع ذلك ما ضاعف من غيرة راسين ، وأدى الى مماتها بعد سنتين (١٦٦٩) ميتة يرجع اليه سببها ، وان كان لا يقع عليه اثمها • وكذلك لم يسلم مؤلف التراجيدية وممثلتها من المشاركة الفعلية فى الاكتواء بنارها واللحاق بضحاياها •

أندروماك بعد حرب طروادة

لما كانت وقائع تراجيدية « أندروماك » أولى تراجيديات مسرح الحب لشاعرنا راسين عام ١٦٦٧ بعد الميـــلاد ، مترتبة على حرب طروادة التى وقعت بينها وبين اليونان قبل الميلاد بحوالى ١٢٠٠ سنة ، وأبدع فى وصفها وترنم بأناشيدها « هوميروس » فى الياذته ، فقد رأينا أن نبدأ بهذا التلخيص لها على سبيل التذكرة بها •

كانت تقوم تجاه بلاد اليونان على بحر ايجه فى آسيا الصغرى دولة قوية جنوبى مضيق الدردنيل ، عاصمتها

طروادة ، على سفح جبل « ايدا » ، وكانت منيعة حصينة الأسوار • وقامت بين الدولتين طروادة فى الشرق واليونان فى الغرب تلك المنافسة المعتادة منذ ذلك الحين بين الشرق والغرب • وقد وقعت حادثة شخصية كانت الشرارة التى أضرمت القتال •

كان على طروادة وقتئذ ملك اسمه « بريام « Priam » »، وكان كثير الولد لا يقل عدد من أنجب من البنين عن الخمسين ، وكان أشجعهم « هكتور « Hector » وأجملهم « باريس Paris » • فاتفق أن قدم باريس الفتى على أمير « اسبرطة » منيلاس Ménélas واستهوى امرأته « هيلين « Hélène » المشهورة بجمالها البارع الفريد • فقامت اليونان كلها فى طلب الثأر وغسل هذا العار ، وعلى رأسها « أجاممنون Agamemnon » أخو « منيلاس » ملك ميسين Mycènes وأقوى ملوك اليونان شوكة وأعظمهم شأنا • كما حرضت اليونان أن يكون فى مقدمة أبطالها « آخيل « Achille » من أمراء تساليا ، وكان معه صديقه الحميم « باتروكل «Patrocle» » وقد اشترك فى الحملة سائر الأمراء الاغريق ، ومنهم الاخوان الباسلان « أجاكس « Ajax » وكذلك « عوليس Ulysse » الماكر ملك جزيرة ايتاك Ithaque والحكيم الشيخ « نسنور « Nestor » وغيرهم • وبلغت عدة جيوشهم مائة ألف مقاتل أقلتهم من ميناء أوليس Aulis نحو ألف ومائتين سفينة • وقد عانى ملك طروادة الشيخ

بريام ما عانى للتأهب لملاقاتهم مع حلفائه بمثل هذا العدد من الجند .

ونزل اليونانيون على الشاطيء الآسيوى ، ونجحوا فى اتخاذ معسكر تحصنوا فيه عند أسوار طروادة ، حيث أقاموا محاصرين لها عشرة أعوام ، وكان فى مقدمة المدافعين عنها هكتور بطل طروادة المقدم ، الثبت الجنان . وكان نظيره عند اليونان آخيل بطلهم المغوار ، الجائش الصدر ، السريع البطش .

وكانت تقع بين الفريقين مناوشات ومعارك غير فاصلة . وقد اتفق على أثر بعضها أن وقعت من نصيب آخيل اسيرة حسناء ، فآثر القائد العام أجاممنون نفسه بها . فاستاء آخيل واعتزل القتال غاضبا ، ولزم خيمته وكان من جراء غيابه أن طال الحصار ، وظهر تفوق بطل الطرواديين « هكتور » على أبطال اليونان . وحدث أن سقط من صرعاه « بروكل » صديق آخيل ، فبلغ من جنونه على صديقه أن عاد الى ساحة القتال للانتقام له ، وأهلك الكثيرين من الطرواديين وفيهم هكتور نفسه . فتضعضع بهلاكه ركن الدفاع عن طروادة وسندها العظيم .

ولكن الحرب استمرت مع ذلك بفضل حلفاء طروادة وثباتهم على مساندتها ، فضلا عن إصابة بطل اليونان آخيل بسهم مسموم رماه به باريس فنفذ سمه فى عقبه فأرداه قتيلا .

وفي آخر الأمر عمد اليونانيون الى الحيلة • وكانت الحيلة من تفكير عوليس • فتظاهروا بالتقهقر الى بلادهم وتعمدوا ترك بعض المتاع ، ومنه حصان هائل من الخشب كمن في جوفه بعضهم فانخدع الطرواديون ، وفتحوا أبواب المدينة الحصينة وأدخلوا الحصان فيها ، وانصرفوا بعد أن أوصدوا الأبواب • وفي الليل خرج الكامنون من الحصان الخشبي وفتحوا أبواب القلعة لليونانيين الذين كانوا قد عادوا تحت جنح الظلام ، فاقتحموا المدينة وهدموا طروادة وأحالوها أطلالا ، وعاثوا فيها نهبا ، وأعملوا في أهلها القتل • وكان ممن قتلوا الملك الشيخ بريسام • وزوجته وأولاده • كما أخذوا بناته سبايا ، فكان نصيب أجاممنون منهن « كساندرا Cassandre » ومن نصيب « بيروس » ابن آخيل أرملة البطل الطروادى هكتور وهى « أندروماك Andromaque » •

وقد لاقى اليونانيين في عودتهم خطوبا نذكر منها السنوات العشر التى ظلت فيها الأمواج تطوح بأحد ملوكهم (عوليس) وتقذف به من خطر الى خطر ، ومن هذه الخطوب خرجت « الأوديسة » وهى ملحمة هرومر الثانية •

أما أبيروس فقد عاد سالما الى عرش « أبير Epire » ومعه أسيرته « أندروماك » وكانت قد نجحت فى اخفاء ولدها « أستياناكس Astrayamax » من طالبى رأسه من اليونانيين ، الذين كانوا حريصين على أن لا يبقى لهكتور

ولد يخلفه ويعمل على الانتقام له • فالغلام ـ كما شـــاء راسين مؤلف تراجيدية أندروماك ـ مقيم معها فى القصر •

فاتحة مسرح الحب : تراجيدية أندروماك

موضوع هذه المسرحية يعيد الى الذهن ما أوقعه الاغريق قديما من الولايلات بنساء طروادة ، وما كان من أخذهن سبايا ، ومنهن بنات الملك وزوجـات الأبطـــال ، ونذكر من هؤلاء أندروماك زوجة هكتور بطل طروادة الذى قتله بطل اليونان آخيل ، فقد وقعت من نصيب ابن آخيل، ونعنى به « بيروس » الذى عاد بها الى امارة « أبير » التى نصب نفسه أميرا عليها • وأراد الأمير أن يتزوج أسيرته ، فقام دون ذلك عقبتان : الأولى وفاء أندروماك لذكرى زوجها الشهيد ، والثانيـــة وجود خطيبة للأمير وهى « هرميون « Hermione » ابنة منيـلاس ملك أســـبارطة ، من زوجته هيليا المشهورة التى شبت حرب طروادة من أجلها حين افتتن بها باريس أصغر أبناء ملك طروادة واجترأ على خطفهـــا •

وتبدأ المسرحيـــة بقدوم « أورست « Oreste » » أمير أرجوس على مدينة « بوتروت « Buthrot » » فى امارة ابير شمال شرقى اليونان ـ مندوبا عن الجيش اليونانى ، يطلب ابن أندروماك عن زوجها الشهيد هكتور الطروادى ، لتقديمه ذبيحة للآلهة قربانا على أرواح قتلاهم • وهنـــا

يخطر لأمير البلاد « بيروس » أن يتخذ من طلب الجيش اليونانى للغلام أداة للضغط على أمه الأرملة الحسناء أندروماك ، كى ترضى به زوجا لقاء رفضه تسليم ابنها للأعداء ، لفرط حبه لها وتدلهه بها • وفيما يلى ملخص المسرحية فصلا فصلا •

ملخص التراجيدية (١)

الفصل الأول :

كانت أندروماك أرملة هكتور الطروادى أسيرة هى وابنها « استياناكس Astyanax » فى بلاط بيروس الاغريق ناقمين على « أندروماك » احتيالها فى خلاص ابنها « هرميون Harmione » ابنة جاره منيلاس ملك أسبرطة ، وكان من أجل ذلك قدومها على بلاطه ومقامها فيه • ولكن الملك أحب أندروماك التى كانت عنه معرضة • ولما كان الاغريق ناقمين على « أندروماك » احتيالها فى خلاص ابنها الفتى من انتقامهم فقد أرسلوا « أورست Orestc » يطلبون الى ملك أبيروس تسليم الفتى •

ونرى عند رفع الستار « أورست » الرسول فى عاصمة ابير ، وهو يصف لصديقه « بيلاد Pylade » سعيه للسفارة هنا ليكون على مقربة من هرميون التى

(١) ترجمت هذه التراجيدية الى معظم اللغات ومنها اللغة العربية بقلم الدكتور طه حسين •

كان يريدها زوجة من قبل ، ولم يزل يحبها حتى الساعة .
ويطلب السفير من « بيروس » ملك ايبر باسم الاغريقيين
تسليم الفتى الطروادى . فيرفض بيروس فى اباء وشمم ،
ويفضى الى أندروماك بالخطر الذى يهدد ابنها ، ويعدها
بانقاذه ان هى ارتضته زوجا . ولكن أندروماك تتردد
فيغضب بيروس ويتوعد . ولا تصدق أندروماك أن الأمر
يمكن أن يبلغ بالملك الى امضاء وعيده ، فتصر على موقفها
وتمضى فى رفضها .

الفصل الثانى :

تقبل هرميون على أورست واعدة اياه أن تتبعه ،
اذا أصر الملك بيروس على الامتناع عن تسليم الفتى تحت
تأثير حبه لأمه أندروماك وايثاره لها ، فيملأ السرور
جوانح أورست . ولكن الملك لا يلبث أن يعلن استجابته
لطلب الاغريق وعزمه على تسليمهم الفتى الى رسولهم ،
وذلك لاصرار أندروماك على الوفاء لذكرى زوجها .

الفصل الثالث :

يبلغ من يأس أورست أن يعزم ـ بموافقة صديقه
بيلاد ـ على اختطاف هرميون ، فى حين كانت هرميون
سعيدة بالبقاء ، بعد الذى حدث من تصميم أندروماك على
عدم الاستجابة للملك واعتزامه تسليم ابنها . ويبلغ من
يأس أندروماك أن تسعى الى التماس المعونة من هرميون

على خلاص ابنها ، فتردها خائبة • فترتمى الأم فى التياعها على أقدام الملك بيروس متوسلة ، فيخيرها بين الزواج به أو الفجيعة فى ابنها •

الفصل الرابع :

تفضى أندروماك الى صديقتها كاتمة سرها « سفيز « Céphise » بعزمها على الرضى بعقد قرانها على الملك بيروس انقاذا لولدها ، ولكنها قاتلة نفسها على الأثر • ويجن جنون هرميون عند علمها بخبر القران المزمع ، فتحرض أورست على قتل الملك بيروس ، وهى فى ثورة غضبها حين تبين لها ـ فى مقابلتها الأخيرة له ـ الى أى مدى بلغ تعلقه بالمرأة الأخرى أندروماك •

الفصل الخامس :

كان قلب هرميون موزعا بين ما تكنه لبيروس من غرام ، وبين ما تدفعها الغيرة اليه من شهوة الانتقام ، وقد تغلب الباعث الأخير حين وصفت لها صديقتها « كليون « Cléone حفلة عقد الزواج ، ثم يقوم أورست عليها معلنا قتل بيروس وهو فى انتظار ما وعدت به من رحيلها معه • فاذا هرميون بدلا من أن تشكره على انفاذه أمرها وتأخذ للرحيل أهبتها ـ تصرخ فى وجهه وتصب عليه لعنتها ، ثم تهرع الى المعبد حيث كانت هناك مسجاة جثة

القتيل الذى تحبه ، وتقتل نفسها على جثته مرتمية على صـــدره •

ولا يستطيع أورست احتمال بلواه ، وقد بلغ بها شقاؤه أقصاه ، فتعتريه لوثة من الخبال ، فيهذى بالأشباح والأفاعى تتراءى له فى الخيال ، فيأخذ « بيلاد » بيـــده ، ويدفعه خارج القصر الذى خلا اليوم من كل من تآمروا على الشر •

نجاح المسرحية وما أعقبه من المعارك الأدبية

مثلت أندروماك للمرة الأولى أمام البلاط الملكى فى جناح الملكة فى ١٧ نوفمبر سنة ١٦٦٧ ، وفى اليوم التالى مثلتهـا فرقة مسرح بورجـــونى أمام الشعب الباريزى فانتصرت تراجيدية أندروماك على المسرح نصرا مبينا • ولقد قيل أنها أحدثت مثل ما أحدثته مسرحية « السيد » من الدوى العظيم ، والواقع أنها لا تقل شـأنا عن سابقتها وما دام الأمر كذلك ، فلا موضع للعجب اذا حيكت حولها المؤامرات والدسائس نفسها ؟

ولم يكن للثورة التى أحدثتها أندروماك فى الأدب ، أن تمر بسلام من غير معارضة وصدام • وكان الخصوم بطبيعة الحال هم زمرة الشعراء الذين حان للشاعر الشاب أن يحل محلهم ، ومنهم بيير كورنى وأخوه توماس وشاعر الغنائيات الغزلية « كينولت Quinault » وغيرهم ، وقد

انضم اليهم بعض النقاد وأفراد من الأشراف والغانيات من حزب كورنى ، وزاد على هؤلاء أجمعين محام من أعضاء البرلمان اسمه « سبلينى Sabligny » الذى كتب محاكاة هازلة لمسرحية راسين أسماها « الخصومة المجنونة la Folle Querelle » . وتولت تمثيل هذه المهزلة فى ٢٥ مايو سنة ١٦٦٨ ، فرقة موليير الذى كان قد وقعت النبوة بينه وبين راسين من قبل • ولقد أحدث هذا جميعه جرحا عميقا فى نفس الشاعر المتفززة ، ولكنه واجه العاصفة مرفوع الرأس ، ورد على القادحين المهاجمين بمقطوعات من الشعر لاذعة الهجاء ، ولم تخر عزيمته وتخذله شجاعته لحظة واحدة • وكيف لا يكون موقفه كذلك ، وقد كان فى جانبه الملك ودوقة أورليانز ورجال البلاط الشباب ، ومن فوق هؤلاء جمهور الشعب فى عصره ، ومن بعده جاءت الأجيال المتعاقبة مصدقة لحكمه •

مصادر المسرحية

ذكر راسين صراحة فى مقدمته ، أنه استمد موضوع مسرحيته من فقرة من الالياذة للشاعر اللاتينى « فرجيل »، كما ذكر أن تراجيدية « أندروماك » لمؤلف المأساة الاغريقى القديم « يوربيديس » قد زودته ببعض الملامح فى شخصية « هرميون » غريمة « أندروماك » ويمكن أن يزاد على مصادر وحى الشاعر الياذة هوميروس ، وتراجيدية الطروادة للفيلسوف والمؤلف التراجيدى اللاتينى « سنيكا » ، وفيما يلى تجديد لما أفاده شاعرنا ممن تقدموه • . . .

اما هومير فقد ذود شاعرنا بالتخطيط الأولى لصورة أندروماك : سيماء طلعتها وملامح نفسيتها ، زوجة وأما ، ويظهر في الفصل الثالث من مسرحية راسين الأثر المباشر لذلك في استحضاره لمشهد الوداع المشهور بين هكتور وأندروماك في النشيد السادس من الياذة هومير ٠

أما المواضع الأخـــرى التى تحدث فيها هومير عن أندروماك ، فهى النشيد الثانى عشر الذى يصفها فيه وهى تتطلع من أعلى الأسوار على تمثيل (آخيل) بجثة زوجها هكتور ، ثم النشيد الرابع عشر حيث تبكى فجيعتها فى زوجها ، وتندب مصير ابنها « استياناكس » فى تعرضه لفظائع اليونان ٠

وأقل من هذا ظهورا أثر المؤلف المسرحى اليونانى « يوروبيديس » ، وذلك لاختـــلاف النمط الذى اتخذه المؤلف القديم لأندورماك فى مسرحيتيه « نساء طروادة » و « أندروماك » اذ اقتصر من أندروماك على جانب الأم ، فنراها فى تراجيدة « نساء طروادة » وقد استبد بهـــا اليأس حين جاء اليونان ينتزعون منها ولدها الوحيد من زوجها هكتور : « استياناكس » ليقذفوا به من أعلى أسوار المدينة على أثر الاستيلاء عليها (لا بعده كما فى مسرحية راسين) ٠ وكذلك فى تراجيدية يوروبيديس الأخـــرى « أندروماك » ، نرى البطلة وقد حملها بيروس بعد سقوط طروادة الى بلاده سبية أسيرة حيث تزوجها ٠ وهنا يصور

لنا المؤلف مرة أخرى رجفة فزعها الشديد من أجل ابنها الآخر ، الذى لم يكن فى هذه المرة من زوجها الشهيد هيكتور الطروادى ، بل ابنها « مولوسيس Molossus » من ملك رقها وغاصبها بيروس ابن آخيل قاتل زوجها ٠ وذلك أن بيروس كان قد انصرف عنها وتزوج هرميون ابنه الأمير منلووس من الحسناء الفاتنة هيلين ، وفى أثناء غيابه من احدى غاراته ، تعرضت حياة أندروماك وابنها لاضطهاد غريمتها هرميون زوجة بيروس الشرعية ، فكان الصراع بين المرأتين ، وكان اشفاق أندروماك على ابنها أكثر من اشفاقها على نفسها ٠ وقد شد من عزم أندروماك يقينها بحب بيروس لها ، وقد أتاح لها النجاة تدخل جد بيروس ، فكان من فشل هرميون واخفاقها أن هربت مع « أورست Orcste » محبها المتدله بها بعد أن عاهدها على قتل زوجها بيروس انتقاما لها منه ٠

أما أبيات الشاعر اللاتينى « فرجيل » فى ملحمته الأليادة Emerode التى يشير فيها الى أندروماك فانها لا تزيد على كونها المامة خاطفة جد موجزة ، ومع ذلك فان أندروماك فيها أقرب الى البطلة فى مسرحية راسين ، فهى وان كانت عند فرجيل قد تزوجت بيروس ثم من بعده « هيلينوس Hélénus » أحد الأحياء من أبناء ملك طروادة الأسرى مثلها ، فأنها فى صميم وفائها وخفرها ولطفها قد انطوت على جرح أليم ينم عليه مدلول الحديث دلالة تقطع بأنها على الرغم مما آل اليه حالها ، تحتفظ

لزوجها الأول هكتور رحمة وحنانا فوق الوصف ٠

« أما « سنيكا » فقد زعم في تراجيدية « نســـاء طروادة » أن أندروماك أخفت ابنها استنياناكس في قبر زوجها هكتور ، زاعمة للقوم أنه مات ، ولكن الحقيقـــة لم تكن لتخفى على الداهية « عوليسوس » ، فأصدر الأمر بأنها اذا لم تسلم ابنها ، فانه هادم قبر زوجها فلم يكن من أندروماك الا أن سلمت للذبح ابنهـــا حتى لا ينتهك قبر زوجها ٠

والواقع أن الذى يدين به راسين للمؤلف الفيلسوف الأخلاقى سنيكا ، لا يتجاوز بعض العبارات من تراجيديته اللاتينية التى يعارض بها تراجيدية سلفه اليونانى العظيم ٠

وبهذا ينتهى الكلام عن المصادر التى اتفق النقـــاد على أن راسين رجع اليها وأفاد منها فى تأليف تراجيديته « أندروماك » التى كانت أولى آياته المسرحية ٠

ولكن بعض النقاد يذهب الى أن راسين فى التصرف الذى آدخله على الأسطورة اليونانية كان ينظر الى تراجيدية لمعاصره الشيخ كورنى (مثلت عام ١٦٥٢ فلم تلق نجاحا) واسمه « برتاريت « Pertharite » وهو اسم الملك من ملوك لومبارديا، ذاع موته ، فتعرضت زوجته لعاشـــق يهددها فى ابنها اذا لم تستجب لغرامه ، وكان لهذا العاشق خطيبة مفتونة به ، فلم تجد الخطيبة للانتقام منه بدا من اللجوء الى عاشق كان مفتونا بها ٠ والناقد صـــاحب هذا

الرأى يذكر هذا على أنه ضرب من معارضـة مؤلفى ذلك العصر بعضهم البعض ، ليقيم الأخير دليله على أنه تفوق على سابقه حتى فى الميدان الذى اختاره لنفسه وبالوسائل التى اصطنعها لفنه ، والواقع أنه حتى اذا صح ذلك ، فإن الأمثلة عليه كثيرة ، والعبرة ليست فى الخطة أيا كانت فى عمومها ، ولكن فى طريقة تناولها على الخصوص .

أندروماك القديمة وأندروماك الحديثة

ونعود الى مصادر راسين القديمة فى شأن أندروماك ، لنقول أن صورة أندروماك فيها صورة صادقة للأسيرات فى العصور الغابرة ، فان ملكة الأمس كانت اذا وقعت أسيرة لم تحمها عظمتها الماضية من مزاولة ما يزاوله سـائر الأسيرات من الأعمال ، ومن معاناة ما يعانينه فيها من ألوان الهوان ، فهى تغزل ما أمرتها بغزله سـيدتها ، وتمضى بالجرار فى طلب الماء من العيون العامة ، وتقوم بالخدمة فى البيت ، وبالجملة هى جارية عليها أن تخضع لحب سـيدها .

هكذا كانت حال المرأة الجارية فى الزمن القديم ، ولم يكن أحد حتى فى عصر فرجيل فى ابان الحضـارة الرومانية يعجب أو يستكره أن يقال أنه جرى على لسان الأميرة أندروماك أنها لقيت هذه المعاملة وهى أسيرة .

هذا هو الواقع التاريخي ، ولكن أندروماك راسين تخالفه ، فهي أسيرة ، ولكنها مبجلة مكرمة ، أن لها وصيفة ، على حين لم يكن لأندروماك القديمة الا رفيقة في الأسر ، انها ملكة في قصر من وقعت في أسره ، وهذا الوضع الأخير من الأوضاع العصرية التي يحتفظ فيها الملك المخلوع بجلالة مقامه ورفعة قدره ، وعلى هذا الوضع نجد بيروس على الرغم من شدة حبه لها ، لا يخرج عن كونه المولى الرشيد المعتدل الذي يحرص على التزام مظاهر الأدب والاحترام معها ، يعبد أسيرته من فرط الغرام ، ولكنه يرى من الخسة أن يتخذ قبلها ما له عليها من حق المولى في ذلك الزمان ، كما نرى أندروماك من جانبها تنظر الى هذا الاحترام على أنه شيء طبيعي ، وقد كان العهد بالجارية الأمة أن تقر وهي متكسة الرأس خافضة الطرف أن مولاها أخذ وطره منها ؛ أما أندروماك الحديثة فأنها تحس بأن شعورها جرح وكرامتها امتهنت لمجرد عرض الزواج بعد مصرع زوجها ، فهي ترفض الزواج من بيروس اكراما لذكرى هكتور ، وهذا التحرج الرقيق لم يكن معروفا في جاهلية اليونان بل هو من لطائف الأحاسيس في عصر المدنية ، فضلا عن أنه من شواهد الاستقلال الذي لا يتفق مع العبودية المفروضة على الاماء .

والقارئ حين يرجع الى مسرحية يوربيديس الأولى « نساء طروادة » ، يجد في موقف أندروماك مع أمها وهي تناجيها وتعزيها وتتعزى معها عن ذبح أختها ضحية على

قبر آخيل ، تقول عن تلك الأخت انها على الأقل استراحت في القبر عن ذل الأسر « أجل ، انني لأولى منهـا ببكائك يا أماه ، أنا التي سيأخذونها أسيرة الى بلاد اليونان ليكون مصيري الى فراش مولى متحكم متعاظم ، مطلق الأمر » .
فتنصحها الأم قائلة ، « يا بنيتي ، كفى عن ذكر مصرع زوجك ، ان دموعك عاجزة عن رده الى الحياة ، تعلمي الآن اكرام مولاك الذى أراده القدر لك ، واعملي على أن تحظى لديه بحلاوتك وأنسك وعذوبتك ، حتى يبقى للطرواديين بفضل حظوتك بعض السند » .

من أجل هذا الوضع لسبايا الحرب لم يجعل مؤلف المسرح اليوناني القديم لذكرى هكتور عند أندروماك ذلك الشأن الأكبر الذى جعلها ترفض من أجله ــ عند راسين ــ مجرد التفكير في الزواج بسيدها ، بله التحبب اليـه وطلب الحظوة في عينه ، على نحو ما نصحت به أمها وحضتهـا عليـه .

ومن هذه المقـابلة بين أندروماك القديمـة وأندروماك الحديثة ، يخلص لنا أن أندروماك الذى يطالعنا بها راسين تخالف الواقع عند الأقدمين ، فهي أندروماك كمـا يحلو تصورها لأبناء عصره ، تحت تأثير ما استحدثوه من حضارة وما استجد عليهم من دين .

ويبدو ذلك واضحا في تراجيدية راسين ، وحسبنا أن نستشهد للدلالة على ذلك بالحوار التـالى في المشهد

السابع من الفصل الثالث ، حيث يتوسل الملك بيروس فى لهجة صارعة متلطفة ، لاسترضاء أسيرته أندروماك لقبول الزواج به ، وأن يأخذ على نفسه انقاذ حياة ولدها ، يرفض تسليمه لرسول اليونانيين ، متعرضا من أجلهما لغضبهم أجمعين :

الملك بيروس يخاطب أندروماك :

سيدتى ، لا تبرحى
لايزال فى الامكان أن يرد لك ابنك الذى تبكينه ·
نعم ، انى للأسف أجدنى حين استثير بكاءك ، انما أزودك بالسلاح تشهرينه على ·
لقد كنت أحسبنى أحمل الى هنا كرها أشد من هذا ولكن ، سيدتى هل لك على الأقل أن تديرى الى طرفك ·
انظرى ، أترين نظراتى نظرات قاض صارم قاسى القلب ·
أترينها نظرات عدو يتعمد أن يسوءك ·
فلماذا تتعمدين حملى على الغدر بك ؟
انى لأستحلفك بابنك أن نكف عن هذه المجافاة ·
وبعد ، فانى أنا الذى يهيب بك الى استنقاذ الصبى
يجب أن تلتمس اليك زفراتى تأمين حياته ؟

أيجب أن أجثو على قدميك متشفعا له ؟

انقذيه قبل فوات الأوان ، انقذينا .

اني لأعلم العهود والمواثيق التى سأنقضها من أجلك ،

وكم سينصب على رأسى من الأحقاد والضغائن .

انى سأطلق هرميون ، سأضع على جبينها مكان التاج
ميسم هوان لا يزول .

وسأزفك الى الهيكل المهيأ لزفافها ،

وأعصب على رأسك التاج الذى أعد لرأسها .

فلم يعد الأمر يا سيدتى بالعرض الذى يستهان به .
أنها كلمة أقولها لك : اما أن تهلكى أو تملكى .

ان قلبى الذى اســتبد به اليأس من جحودك عاما
كاملا .

لايستطيع بعد الآن أن يحتمل الشك فى مصيره .
ان هذا معناه أن يطــول ـ فوق طـــاقة الصبر ،
ومن وراء كل حد ـ خوفى ووعيدى وشكواى .

انـــى هالك ، اذا فقدتك ، ولكنـــى هالك كذلك
اذا طال انتظارى فوق ذلك .

فتدبرى الأمر ، انى تاركك وســأعود . ســأعود
لأصطحبك الى الهيكل حيث يكون ابنك فى الانتظار .

هنالك ترينني اما مذعنا ، أو ثائر النقمة •

هنالك اما أن أتوجك ، أو أقتل ابنك قيد ناظرك •

(ينصرف بيروس)

الوصيفة : أو ما أنبأتك من قبل أنك على رغم اليونان ، ستكونين المسيطرة على مصيرك •

أندروماك : واأسفاه ، ماذا وراء كلامك •

لم يبق لى الا أن أقضى بالموت على ابنى •

الوصيفة : مولاتى : حسبك ما فعلته وفاء لزوجك ان الغلو في الفضيلة قد يؤدي بك الى الأجرام في حق ابنك • ان زوجك نفسه لو استطاع لحمل نفسك الثائرة على ايثار اللين •

أندروماك : ماذا ، أجعل بيروس له خلفا ؟

الوصيفة : كذا مشيئة ابنـــه الذى يحرص اليونان على غصبه منك •

أو تظنين آخـــر الأمر أن روحه ستجد في ذلك الخزى لها ؟

أتظنين يا مولاتى أنه سيزدرى ملكا منتصرا سوف يرفعك ثانيا الى مصاف أجدادك •

ومن أجل عينيك يطؤ بقدميه ســـائر المنتصرين

عليك ، وهم يتميزون غضبا لخيبة مسعاهم حيالك .
من ذا الذى يمكن أن يغيب عن ذهنه أن هذا الخاطب

النبيل كان أبوه البطل آخيل ؟

من ذا الذى يكذب عظائم فعـــاله فى الحروب ،
ويغض من قدرها ؟

اندروماك : أفيجب على أن أنساها ، لو نسيها هو ولم يعد يذكرها ؟

أو أنسى هكتور وقد حرموه الجنازة ، وجروا رفاته حول الأسوار امعانا فى الاهانة ؟ أو أنسى

أباه مجندلا عند قدمى وقد تضرج بالدم الهيكل الذى تعلق به واعتصم بحرمه ؟ أذكرى ،

أذكرى الليلة الليـــلاء التى كانت الليلة السرمدية الأخيرة على شعب بأسره تمثـــل بيروس والشرر يتطاير من عينيه ، وقد اقتحم الينا على ضوء النار فى قصورنا المحترقة ، مجتـــازا طريقه على جثث اخوتى ، وهو مجلل بالدم ،

يستحث المعتدين على الأمعان فى المذبحة ، ساعرا أوارها ، مذكيا نارها !

أذكرى صيحات المنتصرين وصرخات المحتضرين وهم يختنقـون فى اللهب ويلقـون الحتوف عـلى ظبـى

السيوف . تصورى وسط هذه الفظائع أندروماك
مشدوهة ذاهلة .

هكذا طلع على « بيروس » أول ما تراءى لناظرى .
وهكذا كانت المفاخر التى تجمل بها وتكلل بتاجها .
انظرى بعد ذلك كله الى ذلك الزوج الذى تزفيننى
اليه !

كلا ، لن أكون ما عشت شريكته فى هذه الجرائم .
فليجعل ان شاء منى ومن ابنى آخر ضحاياه .

الوصيفة : اذن ، هلم لتشهدى مصرع ابنك .
ذلك رهن بك ، فهم لا ينتظرون الا مقدمك .
انك ترتجفين يا مولاتى !

أندروماك : آه للذكرى التى تصدعين بها قلبى .
ماذا ؛ أو أذهب لأشهد كذلك مصرع ابنى .
هذا الابن الذى هو صورة هكتور ، وكل ما تبقى
لى من عزاء وسرور .
هذا الابن الذى خلفه لى هكتور عهدا ماثلا على حبه .
واحسرتاه ، انى لأذكر ذلك اليوم الذى دعته فيه
شجاعته .
أن يسعى الى لقاء « آخيل » ، أو لقاء الموت .
فى ذلك اليوم سأل عن ابنه ، واحتضنه بين ذراعيه ،

وقالى لى وهو يكفكف دموعي « أيتها الزوجة الحبيبة ،
انى لأجهل ما هو مقدر لسلاحي فى المعركة من بلاء ،
فاستودعك ابنى وديعة حبى ،

فان يفقدنى ، فانى مقدر أنه سيجدنى فيك ،
فاذا كانت ذكرى زواجنا السعيدة عزيزة عليك ،
فاظهرى للابن مدى ما كان عليه اعزازك للأب .
كيف بعد هذه الوصية ، أطيق رؤية هذا الابن مراقا دمه الغالى ،
وأترك كل أسلافه يهلكون بهلاكه .
أيها الملك الوحشى ، أيجب أن تأخذه بجرمى ؟
أفأن أبغضتك كان هو المأخوذ بهذا البغض ؟
ألامك الصبى على موت ذويه ؟
أشكا بين يديك آلاما لا يحسها ؟
ولكنك يا بنى هالك ان لم أكف عنك السيف .
الذى يشهره هذا القاسى على رأسك .
وانى لقـــادرة على أن أحـــوله عنك ، ومع ذلـــك فأنا مزمعة على تقديمك اليه .
كلا ، كلا ، لن تموت . لن أستطيع احتمال ذلك .
هلم بنا الى بيروس . ولكن لا يا عزيزتى اذهبى ، فلاقيه عنى .

الوصيفة : ماذا أنا قائلة له ؟

أندروماك : قولى له ان ما أحمله لابنى من الحب لشديد ..
ولكن ، أتظنين أنه فى صميم نفسه مصمم على قتله ؟
أيمكن أن يذهب الحب فى القسوة الى هذا الحد ؟

الوصيفة : مولاتى ، لسرعان ما يعاوده الغضب .

أندروماك : اذا ، اذهبى فطمنيه .

الوصيفة : علام أطمئنه ، على حبك ؟

أندروماك : واحسرتاه ، أهذا الوعد من حقى ؟
يا لرفات زوجى الطاهرة ، يا للطرواديين وا ابتاه .
أى ، بنى ، ما أغلى حياتك على أمك . هام .

الوصيفة : الى أين يا مولاتى ، وبماذا قضيت ؟

أندروماك : هلم الى قبر زوجى نسائله .

فى هذا الحوار نرى فى أندروماك حب الأم لابنها المهدد بالقتل ، الى جانب حبها لزوجها القتيل . وهذا الحب المزدوج قد يبدو للقارىء لأول وهلة متعادلا متساويا على مثال الصورة التى نتمثلها لأندروماك فى الياذة هومر . ولكننا بعد امعان النظر وطول التأمل لا نلبث أن نتبين من خلال ما أجراه راسين على لسان أندروماك ، أنها اذا كانت قد أحبت ابنها كل هذا الحب ، فلأنه صورة أبيه ، ولأنه كل ما بقى عندها من ذلك الحبيب الفقيد .

وحسبنا أن نراجع هذا الوصف لها على لسان بيروس نفسه فى المشهد الخامس من الفصل الثانى :

بيروس : كان تقديرى حين رأيت مبلغ حنانها ، من فرط
ما كان من انزعاجها على ابنها ،

ان هذا الابن هو الذى سيدفعهـا الى مستسلمة .
وقد ذهبت لأرى ما بعد تقبيلها اياه ،
فلم أر الا دموعا يمازجها الغضب والنقمة . ان شقاءها
ليمزج بالمرارة حلاوة الحنان فى طبيعتها .
فيتزايد ما بها نحوى من نفور ،
حتى لينطق فمها مائة مرة باسم زوجها هكتور لقد
كان عبثا توكيدى لها عزمى على اغاثة ابنها .
فانها لم تكن تكف وهى تعانقه عن ترديد قولها :
« أنه هكتور ذاته ، هاتان عيناه ، وكأنى أقبل فاة ،
« وهذه جرأته مبتدرة مبكرة ، هذا هو بنفسه ،
انما أعانقك أنت أيها الزوج الحبيب » .
وبعد هذا الوصف ، لا نحسب القارىء الا قائلا معنا ،

أن أندروماك فى تراجيدية راسين قد لا يكفى أن يقال عنها أنها زوجة أكثر من أم ، بل قد يذهب البعض أبعد من ذلك ، الى القول بأنها زوجة محبة من الطراز الأول . ولكنها زوجة وحسب .

وهذه الصورة لأندروماك فى مسرحية راسين ، تخالف صورتها فى مسرحية المؤلف اليونانى القديم « يوربيديس » ، الذى تعمد أن يكون فزعها فى تراجيديته الأولى « نسـاء طروادة » ، على حياة ابنهـا من هكتور ، مثل فزعهـا فى

تراجيديته الأخرى « أندروماك » ، على حياة « مولوسوس » ، ابنها من غاصبها بيروس . وفى هذا الفزع على الابن أيا كان أبوه ، تتمثل لنا فى « أندروماك الأم » غريزة الأمومة ، التامة الكاملة ، غريزة الأمومة من غير نظر الى العلاقة الزوجية ، الأمومة دون غيرها ، الأمومة فى صورتها المطلقة .

وهكذا تعمد راسين فى تراجيديته تحريف ما ورد فى أساطير الأولين ، ولم يتابع اليونان والرومان من مؤلفى المسرح الأقدمين فيما ذهبوا اليه فى تراجيديتهم من غير تصرف فيه .

أصالة راسين

كان الهم الأكبر لشاعرنا راسين فى « مسرح الحب » الذى طلع علينا به شيئا آخر غير التاريخ ، ولا نعنى بهذا أنه كان لا يعنى بدراسة موضوعاته من الناحية التاريخية ، فان هذه الدراسة واضحة أجلى وضوح فى تراجيديته التالية « بريتانيكوس Britannicus » وانما الذى نعنيه أنه كان لا يتحرج من تحريف التاريخ اذا كان فى ذلك مصلحة القصة ، التى يدير عليها الفكرة ، وما وراءها من التحليل النفسى لأبطالها ، فهو يعمد الى التاريخ وعلى الأخص التاريخ الأسطورى ليتخذ منه اطارا ، ويعمد الى الشخصيات التاريخية لا لتكون ممثلة لعصرها ، بل لتمثل أنماطا انسانية صالحة لتحليل عواطفها الداخلية ، وهذه العواطف قوامها

كلها الحب ، باعتباره أقوى العواطف الطبيعية وأعنفها ، ومن ثمة كان أصلحها وأبلغها من الناحية الدرامية ٠

وراسين في هذا يخالف سلفه العظيم كورني أبا المسرح الفرنسي الكلاسيكي ٠ ولا شك في أن راسين مدين لسلفه ، فهو على الأقل قد تلقى عنه القالب الكلاسيكي ، الذي كان لأستاذه الفضل في تسجيل انتصاره النهائي بمسرحيته الأولى والكبرى « السيد » ٠ ثم أن راسين في بواكيره المسرحية كان لا يملك الا الاحتذاء بمثاله والسير على آثاره ، فيما وراء القالب الخارجي أيضا ٠ ولكن بوادر الخروج عليه كانت تطل بقرنها ، حتى أنه حين حمل الى الأستاذ باكورته الثانية « الاسكندر » ، أطرى الأستاذ نظمه ، ولكنه أردف ذلك بأن جاهر بقوله ، أن المسرحية مع ذلك لا تنم على موهبة درامية ٠ ولم يكن الاستدراك لغيرته من المزاحم الشاب كما قد يبدو ، ولكن العلة هي ما كان في المسرحية من ظاهرة الخروج على طريقة الأستاذ ٠ فالصراع الدرامي عند الأستاذ نهايته النصر المحقق للواجب على أهواء النفس وشهواتها ، وهو من أجل ذلك يصور ذلك الانسان كما يجب أن يكون ، بل أن الصراع أحيانا لا يكاد يكون له وجود ، واذا وجد الصراع فانه تردد لا يطول ، والغلبة للواجب سريعة وساحقة ، وذلك لأن أبطاله قد جبلت طباعهم على قوة الارادة ومضاء العزم ، فلا يكاد يحتاج الأمر عندهم الى أدنى تردد ، ومن ثمة

الحاجة الى أحداث خارجية لتدفع الحركة المسرحية دفعا الى خاتمة المسرحية •

وما دام هؤلاء الأبطال ليسوا ممن نلقاهم فى الحياة العادية ، فقد صح القول بأن كورنى بعيد عن الواقعية • ولكن هذه الخصلة من الناحية الأخرى تبرر القول بأن هذا المسرح جدير بأن يعتبر مدرسة للعظمة النفسية • وطبيعى فى هذه الحال أن يكون لأبطال هذا المسرح لغة نبيلة عالية الطبقة فى مبناها ومعناها ، تتوارد فيها واحدة بعد الأخرى جوامع الكلم التى أجاد كورنى طريقة سبكها حتى أصبحت علما عليه •

وعلى خلاف هذا ، اتجه راسين بمسرحه الذى أحله محل مسرح أستاذه كورنى ، وأقام نفسه خليفة له فى حياته •

لقد تغيرت الأحوال ، فهذا القرن السابع عشر فى أواخره مختلف عما كان عليه فى أوائله ، من حيث تطور الحياة فى البلاط والمجتمع ، وما ترتب على ذلك من تطور فى الأخلاق والعادات والأفكار والأذواق •

ومما يذكر من ظواهر هذا التغيير فى الشطر الأخير من القرن السابع عشر ، أى فى العهد الذى تولى فيه مقاليد الحكم لويس الرابع عشر ، أنه لم يصبح مألوفا فى عهده أن تسفك الدماء فى المبارزات بسبب أو بغير سبب ، كما

كانت الحال أيام هنرى الرابع ولويس الثالث عشر ، ولم يكن ذلك بفضـــل ما استصدره ريشيليو من القرارات بتحريم المبارزة فحسب ، بل بفضل الصالونات الأدبية التى فتحت أبوابها الغوانى المثقفات للجمع بين الأشراف حملة السيف ، وبين الصفوة من أهل الفكر ، ورجال السياسة وأعلام الشــعر وحملة القلم ، وما كان من أثر ذلك على طباعهم الخشنة المطبوعة على الجفاء والعنجهية ، بما أدخله عليها من حسن المعاشرة ، واتساع الصدر لتبادل الرأى ، وسماحة النفس ولين الجانب ورقة الشــمائل واستمراء التعاطف والمشاركة الوجدانية . ثم أكمل ذلك ، ما أعقبه وخلف عليــه عن الحيــاة فى بلاط لويس الرابع عشر « الملك الشمس » ، فى قصر فرساى الرحيبة بمقاصيرها التى تعد بالمئات ، ومن ورائها حديقتها الفسيحة الغناء ، يقيم فيها هؤلاء على اختلافهم الى جواره ، ويجتمعون على السواء بين يديه رهن الرسوم والتقاليد المرعية ، ويقضون الساعات الطوال معه ، وهم ليل نهار وسط مجال الجمال ممثلا فى غوانى البلاط من كرائم العقائل ، وغيرهن من كل غراء المفاتن حلوة الشمائل ، وبين بدائع الفن فى ساحات الحديقة حيث مشــاهد الميــاه فى اندفاعهــا من النوافير ومساقطها فى الحياض ، وقد انعكست عليها ألوان الأضواء والألعاب النارية من جميع الجهات ، وهم فى معظم السهرات متزاحمون يشهدون حفلات التمثيل فى جنــاح من أجنحة القصر أو يشــاركون فيما يقــام فى ردهتة من المراقص ،

وما الى ذلك ، مما يفعل لا محالة فعله من تهذيب كل نفس جافيـة ، وتلطيف كل طبيعـة نابيـة ، مع التوفيق بين الأذواق ، وتحقيق الوحدة والانسجام في المشـاعر ، عن طريق تغليب العقل والنظام على الفن والأدب .

وقد كان من نتيجة هذا جميعه ، أن انصرف أبنـاء هذا العهد عن ممارسة سفك الدماء في المبارزات بسبب وبغير سبب ، ولم يعد يروعهم في الروايات والمسرحيات ما كان يروعهم من البطولات التي تجاوز المعقول والمعهود في طاقة البشري ، كمـا لم يعـد يروقهم في الروايات والمسرحيات ذلك التشامي بالغراميات على نحو يستعلي على كل ما هو طبيعي .

وقد ظهر رد الفعل هذا ، في كوميديات موليير بما فيها من سخرية بغير المعقول وغير الطبيعي ، ومن أجل هذا لم تزل كوميدياته حتى اليوم ، كما ستبقى على الدوام . مقروءة مشهورة في كل لغة وعلى كل مسرح في العـالم أجمع .

ومن بعد لوليير ظهر راسـين في التراجيديا ، وقد اتخذ الأقدمين قدوته ، والطبيعة ملهمته ، والعقل رائده ، ومن أجل هذا ظهرت على يديه أولى آيات مسرحه الجديد « أندروماك » ، بمثابة رد فعل لتلك البطولة الروائيـة الخيالية الخارقة للطبيعة ، المعقود لهـا النصر دائمـا على

النفس بكل ما فيها من الشهوات والهوى ، وبمثابة تصحيح للحب الزائف الذى عرضه « كينولت » Quinmault

فى تراجيدياته ، وهو حب من قبيل الحب الموضوع المصطلح عليه فى الروايات تبدىء فيه وتعيد ، حتى بلغ من تكراره وامتهانه أن باخت وقدته وفسدت طبيعته وتفه طعمه من فرط ما فيه من الرقة المتكلفة والعاطفة المزيفة ٠

وهذه مسرحية راسين « أندروماك » ، تجمع ما عند الاثنين ــ كورنى وكينولت ــ فى البطولة والحب ، ولكنها ما تعرضه من البطولة طبيعى ، وما تكنه من الحب حقيقى ٠

وهذا شاعرنا راسين لا يعدو فى عرضـــه للبطولة إيثار البساطة فى مواقفها ، كما يحرص فى تناوله للحب أن يتوخى فيه التحليل النفسى ٠

ويمتاز راسين ببراعته فى المواقف الدراميـة دون امعـان فى التعقيد ، ودون اكثار من الأحداث الخارجية فنراه يجتزىء بالحركة الأولى ، وهى قدوم رسول اليونان « أورست » ، بطالب بابن « أندروماك » من هكتـور ، لتسـليمه اليهم ٠ وبعدهـــا على الفـور ، يتعين موقف « أندروماك » العفيفة الفاضلة العاقلة ، تجاه الشخصيات الأخرى الثلاثة ، وقد تخلت جميعا عن الفضيلة والعقل ٠ فبينما أندروماك ــ مدفوعة بوفائها لذكرى زوجها وحبها لابنها ــ لا تفكر فى غير القيام بما يجب عليها نحو هذا

وذاك . يندفع الآخرون مع الحب الأعمى والشهوة المشبوبة . فهذا الملك بيروس لا يفكر الا فى أرملة هكتور ، وهذه هرميون لا تفكر الا فى بيروس ، وهذا أورست لا يفكر الا فى هرميون ، على حد قول الشاعر العربى الذى اشتهر بالمجنون — مجنون ليلى — اذ يقول :

جننا بليلى ، وهى جنت بغيرنا
وأخرى بنا مجنونة لا نريدها

وهؤلاء هم ، يتعلق مصير ثلاثتهم ، بقرار أندروماك الأسيرة ، التى أصبح مصيرهم جميعا رهن كلمة واحدة تلفظ بها ، فى أمر الزواج من غاصبها ومالك رقها ، كلمة واحدة : نعم أو لا ، فاذا المصائر الثلاثة فى هذه غير المصائر فى تلك كالذى بين النقيض والنقيض . وهكذا كانت الأسيرة هى سيدة الموقف ، تتحكم فيه بفضلها وعقلها . وبحكم هذا التفوق الخلقى ، كان فى كفها الممدودة اليهم ، سلاح القدر الجارى عليهم .

والمعول هنا ليس على الأحداث الخارجية ، بل على الصراع الداخلى فى النفس الانسانية . وهو صراع شديد رائع ، نظرا الى كون النفس الانسانية مركبة معقدة . وقد أغنى هذا التعقيد النفسى راسين عن تعقيد الحوادث على نحو ما نجد فى مسرح كورنى ، ولا شك فى أن متابعة الانسان لهذا الصراع النفسى عند أخيه الانسان أجدى

وأمتع ، أجدى بما يفيدنا من معرفة بعمق أغـوار النفس الانسانية ، وتراكب طباقها وتعدد أهوائها . وأما أمتع ، فلأنه يتعلق بالانسان ، وليس شيء يعدل اهتمام الانسان بما يجرى فى نفسه وفى نفوس أبناء جنسه . ومن أجل هذا كانت عناية راسين بالحقيقة الانسانية أكثر من عنايته بالحقيقة التاريخية ، فلو أننا خلعنا عن الملك بيروس أو الأمير أورست أو الأميرتين أزياءهم الاغريقية والطروادية ، وخلعنا عليهم أزياء العصر الذى كان فيه تأليف المسرحية لصح فى عياننا أننا نشهد الملك الشاب لويس الرابع عشر وهو فى عنفوان الشباب يناجى نبيلة من النبيلات استهواه جمالها وحلاوة دلالها ، أو على وجه العموم بعض رجال البلاط الملكى وبعض غانياته الحسان يتطارحان الغرام فى احدى صالونات اللوفر بلغة أهل البلاط وأناقتهم وحسن اصطناعهم للأدب ولطف الشمائل . والواقع أن راسين لم يكن يخلو من القصد الى ذلك ، لأنه ادعى الى اهتمام نساء العصر ورجاله بما يدور على المسرح من علاقات بين الشخصيات ، وبالتالى الى تحقيق هذا النجاح الذى أحرزه مسرحه . فاذا تساءل سائل فيم كان اختياره للزمن القديم اذن ؟ قلنا أنه عمد الى ذلك لأن بعد الزمان يزيد فى الروعة ، ومن ثمة كان ايغاله فى التاريخ القديم فى الكثير من الأحايين ، بل وايثاره فى معظمها لأساطير الأولين فى عصور ما قبل التاريخ . ولقد أعوزه ذلك فى تراجيديته التركية

العثمانية المعاصرة « بيازيد » فاستعاض من بعد الزمان بعد المكان .

ومهما يكن من عصرية هذه الشخصيات التاريخية والأسطورية ، فان ذلك كله ليس بشاغلنا عن التطلع الى أنفسنا فى هذه الشخصيات قديمة كانت أو عصرية بفضل اهتمام المؤلف لتحليل كل خلجة من خلجات النفس الانسانية وكل حركة من حركاتها ، ومتابعة تطوراتها وتعدد أهوائها ، وتعارضها وتفاعلها مع الظروف والملابسات ، بحسب ما يكون من تفاوت فى الطباع والأخلاق بين مختلف الشخصيات ، وهى فى آخر الأمر سواء أمام تيار الشهوات ، شهوات الغريزة فى شدة عرامها ، وضعف الانسان أيا كان من مقاومتها والثبات أمامها ، وهذه هى الواقعية التى كانت فرنسا تفتقدها فى كورنى ، فوجدتها فى راسين .

وجملة القول فى الشاعر راسين ، أنه يعتبر عند الفرنسيين بمنزلة شكسبير عند البريطانيين ، على الرغم من عدم احتفال الانجليز به مثل احتفالهم العظيم بموليير وايثارهم له . ولا شك فى أننا نظلم راسين وغير راسين من شعراء التراجيديا ، اذا نحن عقدنا المقارنة بينهم وبين شكسبير ، سيد شعراء التراجيديا فى التاريخ الحديث كله على اختلاف العصور .

وخلاصة ما ذكرناه عن راسين ومسرح الحب ، أنه راسين فى هذا المسرح قد استرشد بالأقدمين مع اعتماده على الواقع ، والى جانب ميله الفطرى السليم لما هو طبيعى ، واتجه بالتراجيدية الكلاسيكية الفرنسية الى دراسة القوى الانفعالية للأهواء والشهوات مع الاهتمام بالمواقف الدرامية ، وابراز الحقيقة السيكولوجية واستحضاره للوحات التاريخية ، والعناية بانسجام الأسلوب وحسن تعبيراته ، ومراعاة المناسبات فى ايقاعاته ، وتحقيق التعاون بين هذا جميعه على توفير الجمال لمسرحه فى أولى آياته «أندروماك» ، وفى جميع ما أخرجه بعدها من روائع المسرحيات .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٥١٠٦٩/١٩٩٤

ISBN — 977 — 01 — 3932 — 7

مكتبة الأسرة



بسعر رمزى عشرة قروش
بمناسبة
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٤



مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتا